

الفصل الخامس

العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية

٥٢٦-٥٦٩ هـ / ١١٣٢-١١٧٤ م

لعب أتابك «عماد الدين زنكي» (٥٢١-٥٤١ هـ / ١١٢٦-١١٤٦ م)، ومن بعده ولده «نور الدين محمود» (٥٤١-٥٦٩ هـ / ١١٤٦-١١٧٤ م)، دورا كبيرا في نشأة الدولة الأيوبية في مصر والشام، ويرجع ذلك إلى العلاقة الوطيدة التى قامت بينهما وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه لفترة امتدت لأكثر من أربعين عاما، وشملت هذه العلاقة أيضا أولاد نجم الدين أيوب، وفي مقدمتهم يوسف الملقب بعد ذلك بصلاح الدين، فنشأت بذلك علاقة وطيدة بينهما وبين معظم أفراد الأسرة الأيوبية، ووفرت لهم هذه العلاقة ولاية العديد من المناصب المهمة في الدولة الأتابكية في الشام ومصر.

فتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله، وبعد وفاته في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م خلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين، ومنذ ذلك الوقت ثبتت أقدام صلاح الدين في حكم مصر، وتغيرت فقط مسميات حكمه لها من وزير للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله إلى نائب عن نور الدين محمود في حكمها بعد سقوط الخلافة الفاطمية ودخول مصر ضمن سلطة الدولة الأتابكية، ولذلك بعد وفاة نور الدين محمود في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، استقل صلاح الدين بملك مصر، وأسس بها الدولة الأيوبية ثم اتسعت بعد ذلك دولته، وضمّت العديد من بلاد الدولة الأتابكية في الشام.

ومن هنا بات واضحا الدور المهم الذى لعبته الدولة الأتابكية في نشأة الدولة الأيوبية ولهذا أولى ابن أبي طي هذه العلاقة اهتماما كبيرا في كتابه الذى أرخ فيه لسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعنى فيه بتتبع نشأة وتطور هذه العلاقة، وتناول مراحل الضعف

والقوة التي مرت بها، كمقدمة قبل تناوله تاريخ السلطان صلاح الدين بعد استقلاله بحكم مصر، ولذلك جاءت كتاباته ذات طابع خاص، وانفرد فيها بإبراز العديد من النقاط عن كثير من المؤرخين، ولهذا رأينا أن نخصص فصلا مستقلا نعرض فيه رؤية ابن أبي طي عن هذه العلاقة مقارنة بما ذكره كثير من المؤرخين.

وقد اعتمدنا في جمع مادة كتابات ابن أبي طي في هذا الفصل، فضلا عن كتابه السيرة الصلاحية، على كتابه «معادن الذهب في تواريخ الملوك وذوى الرتب»، حيث أورد منه ابن الفرات في أجزائه المخطوطة والمطبوعة أحداثا مهمة، تتعلق بعلاقات نجم الدين أيوب مع «عزيز الدين عم العماد الكاتب الأصفهاني»، و«عماد الدين زنكى»، وال«سلطان السلجوقي» «مسعود بن محمد»، وأيضا العلاقة بين نور الدين محمود و«صلاح الدين»، كما أفادت كتابات «ابن كثير» التي أوردتها عن ابن أبي طي عن العلاقة أيضا بين صلاح الدين والخلافة العباسية ونور الدين محمود، كما أمدنا كل من: ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، والنويرى في كتابه نهاية الأرب، ببعض المعلومات التي أوردتها ابن أبي طي عن مكان مولد نجم الدين أيوب ونشأته.

وكانت العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية، قد بدأت بين عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب، وقبل الخوض في تفاصيل هذه العلاقة، نوضح نبذة عن تاريخ الأسرة الأيوبية قبل نشأة علاقتها مع الدولة الأتابكية.

تاريخ الأسرة الأيوبية قبل علاقتها بالدولة الأتابكية:

لم يحظى نجم الدين أيوب - عميد الأسرة الأيوبية - باهتمام كثير من المؤرخين، إلا بعد أن أصبح ولده صلاح الدين ذو شأن كبير، وأسس الدولة الأيوبية في مصر والشام، وعندئذ اهتموا بالبحث حول أصل أسرته، وقادهم ذلك للبحث عن أصل ونشأة والده، ولكن تعذرت أقلامهم أمام قلة المعلومات التي توفرت لديهم عن تلك الفترة المبكرة من حياة نجم الدين أيوب، وأصبح لذلك هذا الموضوع مجال بحث كثير من المؤرخين ومن

بينهم ابن أبي طي، ونشأ بينهم جدل كبير حول بعض الأحداث الهامة في حياته، ومنها: إثبات نسبه، وكيفية انتقاله مع أسرته إلى العراق، وولايته قلعة «تكريت» التي بدأت فيها علاقته مع عماد الدين زنكي، كما سكنت أقلام كثير من المؤرخين حول بعض التواريخ الهامة في حياته، ومن ذلك تاريخ مولده وتاريخ انتقاله إلى العراق وولايته قلعة تكريت، وخروجه منها.

نسب نجم الدين أيوب:

اختلف كثير من المؤرخين إلى عدة آراء لإثبات نسب نجم الدين أيوب؛ وقد بحث ابن أبي طي ثلاثة من هذه الآراء، واعتمد في بحثه على عدة مصادر منها:

رأى والده «أبو طي النجار»، وآراء بعض أحفاد نجم الدين أيوب كما شمل بحثه عددا كبيرا من آل أيوب، ثم ختم روايته بما أخبره به السلطان الملك الناصر عن هذا الموضوع.

وقد استوقفنا هذا المصدر الأخير لأنه يبدو للوهلة الأولى أنه كان يقصد به السلطان صلاح الدين، ولكننا نستبعد هذا الرأي نظرا لصغر عمر ابن أبي طي عند وفاة السلطان صلاح الدين في عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م حيث كان يبلغ الرابعة عشر من عمره، ولهذا فمن المؤكد أنه كان يقصد أحد أحفاد صلاح الدين أو أحفاد أخيه الملك العادل الذين تلقبوا بالملك الناصر^(١)؛ ومن المرجح أنه كان يقصد «الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن صلاح الدين» الذي تولى الحكم في حلب في ربيع الأول عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م^(٢) حتى صفر عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، وكان يلقب أيضا

(١) ومنهم: «الملك الناصر صلاح الدين بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل»، توفي في عام ٦٥٦ هـ. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٩٦).

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢١.

بالسلطان، وبصاحب الشام، وقتله التتار في جمادى الأولى عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م^(١)

وهذا الرأي - إن صح - سوف يكون له دلالة كبيرة في تحديد تاريخ تقريبي لوفاة ابن أبي طي، خاصة أنه كان قد ذكر بعد عبارة السلطان الملك الناصر كلمة: رحمه الله، وهذا يعني أنه توفي قبل ابن أبي طي، ويقف تحديد تاريخ وفاة ابن أبي طي بدقة حجر عثرة في تأكيد هذا الرأي، إلا أنه إذا أخذنا بالرواية التي كنا قد ذكرناها عند دراستنا لتاريخ وفاته ورجحنا من خلالها أنه توفي بعد عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م، يكون هذا الرأي هو الأقرب للصواب، ويصبح دليلاً جديداً يؤكد وفاته بعد هذا التاريخ.

على أية حال من الآراء التي أوردها ابن أبي طي عن نسب نجم الدين أيوب كان رأياً ذكره له والده أبو طي النجار عن أحد أحفاده نجم الدين أيوب، وهو «تقي الدين عمر ابن شاهنشاه». فقال: «وحدثني أبي رحمه الله قال: كان «تقي الدين عمر» يزيد فيقول: شاذي بن مروان^(٢). وقد أيد «ابن خلكان» هذا النسب بقوله: «قال لي بعض كبراء بيتهم: هو شاذي بن مروان^(٣)» وذكر هذا الرأي أيضاً بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي^(٤).

ثم عرض ابن أبي طي رأياً آخر لأجد أحفاد نجم الدين أيوب، وهو: «أبو الفداء إسماعيل ابن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب^(٥)»، وفيه أرجع نسب جده إلى آخر الخلفاء الأمويين، وقد أنكر ابن أبي طي هذا النسب قائلاً: «وقد ادعى ابن سيف الإسلام لما ملك

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٥-٢٠٦، ٢١١-٢١٢.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤.

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٠.

(٤) التويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٥١؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٣.

(٥) هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي: تولى اليمن بعد وفاة والده في عام ٥٩٣ هـ.

/ ١١٩٧ م، وادعي أنه قرشي من بني أمية، وقيل إنه عزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني

أمية، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، وقتل في رجب عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م (أبو

شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ٥٢٤).

اليمن أنهم من بنى «مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار»^(١)

يعنى آخر خلفاء بنى أمية، وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب بأن هذا كذب»^(٢). ونفى هذا الرأي أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي ودعموا آراءهم بأقوال من البيت الأيوبي^(٣).

ثم أنهى ابن أبي طي بحثه عن نسب نجم الدين أيوب بأنه هو: «نجم الدين أيوب ابن شاذي»، (وأنه) «لا يُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي»^(٤)، وقد أكد هذا الرأي مرة أخرى تأكيدا قاطعا بقوله: «أن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شاذي»^(٥)، وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله^(٦).

وقد أكد هذا الرأي أيضا بعض المؤرخين اللاحقين بابن أبي طي من خلال اطلاعهم على بعض الأوقاف، فقال «أبو شامة» عقب ذكره رواية ابن أبي طي: «ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبي سعيد أيوب بن شاذي العادلي»^(٧)، كما قال أيضا «ابن خلكان»: «وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملأك باسم شيركوه وأيوب، فلم أر فيها سوى شيركوه بن شاذي، وأيوب بن شاذي لا

(١) مروان بن محمد: كان آخر خلفاء الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)، ولقب «بالحمار» لثباته في الحرب، و«بالجعدي» نسبة إلى مؤدبه «الجعد بن درهم»، وولد في عام ٧٢ هـ / ٦١١ م، ويوبع له بالخلافة في صفر عام ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م، وقتل في عام ١٣٢ هـ / ٤٩ - ٧٥٠ م. (الكتبي: فوات الوفيات، ج ٤، ص ١٢٧ - ١٢٨).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤.

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤١، ج ٢، ص ٥٢٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٤؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٢.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٣.

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٣٥.

غير^(١)، كما أيد هذا الرأي بعض المؤرخين المعاصرين لابن أبي طي^(٢)، واللاحقين به^(٣).

وهناك أيضا بعض الآراء الأخرى التي قيلت حول نسب نجم الدين أيوب، فمنها

من أرجع نسبه إلى «نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب»^(٤)، ومنها من أرجع نسبه إلى أبعد من ذلك حتى آدم عليه السلام^(٥).

مولد نجم الدين أيوب:

اهتم كثير من المؤرخين بالبحث عن مسقط رأس نجم الدين أيوب، باعتباره أصل نشأة البيت الأيوبي، وقد تمكن معظمهم من تحديد البلدة التي ولد بها، وهي بلدة «ذوين»^(٦)، وحدد فريق منهم موقعها بدقة، وذكر أنها تقع في منطقة «أذربيجان»^(٧)،

(١) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠١؛ ابن شداد: النوادر، ص ٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٤٧؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٥٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٢؛ النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٣٦.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٣؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٢٧٢؛ المقرئ: المقفي، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٥) ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٥؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤١؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٥٥.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٦؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٧؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٥٤؛ ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ٧٤؛ المقرئ: المقفي، ج ٢، ص ٣٧٨؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٧) أذربيجان: من أقاليم إيران الشمالية، من أشهر مدنها «تبريز». (يا قوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥٢، ٣٥٦).

وتحديدا في آخر حدودها^(١) الشمالية^(٢). كما اهتم بعض المؤرخين بذكر أهم البلاد التي تقع بالقرب من «دوين»: واتفقوا على أنها تقع بالقرب من إقليم «أرمينية»^(٣)، ولكنهم اختلفوا في تحديد أكثر المناطق قربا إليها، ف قيل أنها تقع بالقرب من «تفليس»، الواقعة في «أرمينية الصغرى»^(٤)، والتي كان يقطنها قوم من النصاري عرفوا «بالكرج»^(٥)، فصارت تعرف «ببلاد الكرج»^(٦). وقيل أيضا أنها تقع بالقرب من «خلاط أو أخلاط»^(٧)، الواقعة في «أرمينية الكبرى»^(٨)، وأخيرا قيل أنها تقع على مقربة من «أران»^(٩).

وقد بحث ابن أبي طي أيضا عن المكان الذي ولد به نجم الدين أيوب، ولكنه لم يتمكن من تحديد مكان بعينه، وأورد في ذلك رأيين:

ذكر في الرأي الأول أنه ولد ببلد «شبختان»، وهذا المكان لم يتمكن من تحديد موقعه في كتب الجغرافيا. فقال: «وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد «شبختان»، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ». ثم قال في الرأي الثاني: «وحدثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٩؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ٢٧٢؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٦؛ النعمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٣) أرمينية: من أقاليم إيران الشمالية. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥٢-٣٥٣).

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٦.

(٥) ياقوت: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٠، ج ٢، ص ٤٩١.

(٦) استولي الكرج علي تفليس في عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٦؛ العظمي: تاريخ العظمي، ص ٣٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦٢).

(٧) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٩؛ الذهبي: سير أعلام، ج ١٥، ص ٢٧٢.

(٨) ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٧.

(٩) ياقوت: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٠.

(١٠) أران: من أقاليم إيران الشمالية (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥٢-٣٦٠)، ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٩؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٦.

«جور»^(١). وهذا الجبل وصفه «ياقوت الحموي» بأنه منطقة كبيرة متصلة «بديار بكر»^(٢)، من نواحي «أرمينية»^(٣).

وقد نقد «ابن خلكان» رواية ابن أبي طي، وعارض ما أورده قائلاً: «ولم يوافق على ذلك أحد، بل انفرد به، وإنما نبهت عليه كيلا يقف عليه من لا يعرف هذا الفن فيظن أنه صواب، وليس الأمر كذلك»^(٤). وفي رأينا لم يكن «ابن خلكان» محقاً في نقده لرواية ابن أبي طي، فعلى الرغم من أن ابن أبي طي لم يحدد اسم البلد بدقة، إلا أنه لم يبعد كثيراً في الرأي الثاني الذي أورده عن المنطقة التي ذكر كثير من المؤرخين أن «دوين» تقع بالقرب منها، وهي منطقة أرمينية. نشأة نجم الدين أيوب:

كانت هذه الفترة المبكرة من حياة نجم الدين أيوب من الفترات التي لم يذكرها كثير من المؤرخين، لتندرة ما توفر لديهم من معلومات، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن والده شاذى كان من أعيان بلدة دوين^(٥)، وهذا يعكس لنا طبيعة المناخ الذي نشأ فيه نجم الدين، ويوضح أن شاذى وفر لأسرته حياة كريمة، ونشأ أولاده في رغد من العيش وساعده ذلك على إرسال ولده أيوب كما يقول ابن أبي طي إلى الموصل: «فربى في بلد الموصل»^(٦)، ونشأ شجاعاً بأسلاً^(٧).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٢) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة، حدها ما غرب من نهر دجلة إلى بلاد الجبل المطل على بلدة «نصيبين» إلى نهر دجلة. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٤).

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٥) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٥؛ النعمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٦.

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥.

ولاية نجم الدين أيوب تكريت:

انتقل نجم الدين أيوب مع أسرته من مسقط رأسه في «دوين» إلى العراق، واستقر هناك في بلدة «تكريت»، حيث عمل واليا عليها، وتحديدًا في قلعتها المطلة على نهر دجلة بين بغداد و الموصل^(١). وتعد ولاية نجم الدين أيوب في تكريت من المراحل المهمة التي تسجل في تاريخ الأسرة الأيوبية، حيث نشأت في أثناء ولايته العلاقة بينه وبين الدولة الأتابكية في عهد «عماد الدين زنكي» في عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وكان لهذه العلاقة أبلغ الأثر على مستقبل الأسرة الأيوبية، حيث غرس نجم الدين أيوب في ذلك العام بذور المودة بينه وبين عماد الدين زنكى، وأخذ يجنى ثمار هذه البذور عاما بعد عام، وازدهرت أحوال الأسرة الأيوبية في كنف الدولة الأتابكية.

ولهذا اهتم ابن أبي طي بهذه المرحلة، وألقت كتاباته الضوء حول بعض النقاط المهمة التي توضح تاريخ الأسرة الأيوبية في تكريت، فعرض لولاية نجم الدين أيوب تكريت، وأوضح السياسة التي اتبعها في حكمها، كما تناول نشأة العلاقة بين أتابك عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب، ثم ختم روايته بانتهاء ولاية نجم الدين أيوب في تكريت، موضحا الأسباب التي دعت إلى ذلك.

تاريخ ولاية نجم الدين أيوب تكريت:

كان نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه قد انتقلا - كما ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين - من بلدتهم «دوين» إلى العراق، وعملوا هناك مع «مجاهد الدين بهروز الخادم»^(٢) متولى «النشحنة»^(٣) في بغداد، ويعد فترة من عملهما معه وجد بهروز الخادم في

(١) ياقوت: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٠٠.

(٢) هو بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض، الملقب بمجاهد الدين: كان واليا على العراق لمدة تزيد عن ثلاثين سنة، وتولى قيادة الشرطة بها عدة مرات، في أعوام ٥٠٢، ٥٠٧، ٥١١، ٥١٣، ٥٢١، ٥٢٣، ٥٣٢ هـ، وتولى أيضا بلدة الحلة في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م؛ كما كان لبهروز جهودا

نجم الدين أيوب من الصفات الحميدة ما شجعه على إسناد ولاية تكريت إليه، فتولاها نجم الدين أيوب نيابة عنه^(٢).

أما بالنسبة لتاريخ العام أو الفترة التاريخية التي بدأت خلالها ولاية نجم الدين أيوب في تكريت، فلم يتمكن كثير من المؤرخين من تحديدها، ووجدنا بعض الآراء التي اجتهدت في تحديد هذه الفترة، فذكر المؤرخ «ابن خلكان» أن حكم الأسرة الأيوبية في تكريت بدأ في عهد السلطان السلجوقي «محمد بن ملكشاه» (٤٩٢ - ٥١١ هـ / ١٠٩٩ - ١١١٨ م) بولاية شاذي والد نجم الدين أيوب تكريت من قبل بهروز الخادم، حيث كان شاذي صديقا له بحكم نشأتهم معا في دوين، وبعد وفاة شاذي خلفه نجم الدين أيوب في حكم تكريت^(٣).

واضحة في فنون العمارة في العراق، حيث قام بعمارة جامع السلطان محمد بن ملكشاه، وبناء دار السلطنة له، كما بني رباطا للصوفية، وقام بحفر نهر دجيل، وبني قرية المجاهدية في عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م؛ وقد أضاف ابن أبي طي في روايته عنه قائلا: «كان بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس». وتوفي بهروز في عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ - ٤٥ م. (ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٥٩، ١٧٥، ١٨٢، ج ١٠، ص ١٢٠، ١٢٠، ٧٢، ٩٥، ١١٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٥٧، ٢٨٠، ٢٩١، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٦٣، ج ٩، ص ١١؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦ (رواية ابن أبي طي)).

(١) الشحنة: هي وظيفة الغرض منها حفظ الأمن، وكانت في ذلك الوقت تُعين من قبل السلاطين السلاجقة في العراق، ويهدفوا منها أيضا المحافظة على أمن العراق من الخليفة، خاصة في فترة غيابهم عن العراق. (ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ٢٥٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٢٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٥٦).

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤١؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٧؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ الخوري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٤؛ ابن لفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ٥١؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٢؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٦. وانظر أيضا: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٢٧٢؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٢؛ النعيمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧.

كما أشار «النويري» إلى أن وصول نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه إلى العراق كان بعد انتهاء عهد السلطان محمد بن ملكشاه، في فترة خلافة الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٥ م)^(١).

وهذا أكد كثير من المؤرخين ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم ولكن ظل تاريخ العام أو الفترة التي بدأت فيها ولايته غير واضحة.

وتبقى لدينا رأى ابن أبي طي في هذا الموضوع، وسنرى مدى اتفاقه أو اختلافه مع هؤلاء المؤرخين.

تناول ابن أبي طي في روايته دراسة أحوال نجم الدين أيوب منذ وصوله إلى العراق وأوضح تطور أحواله من خلال عمله في خدمة سلاطين دولة السلاجقة في العراق، فعرض ابن أبي طي في القسم الأول من روايته تطور أحواله نجم الدين أيوب في عهد السلطان «محمد بن ملكشاه» فقال: «خدم السلطان محمد ابن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلا و سدادا و شهامة، فوله قلعة تكريت»^(٢).

ثم انتقل ابن أبي طي في القسم الثاني من روايته إلى توضيح تطور أحوال نجم الدين أيوب في عهد السلطان السلجوقي «مسعود بن محمد بن ملكشاه» (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ٣٢، ١١٣٣ - ١١٥٢ م) فقال: «فلما ولي السلطان «مسعود» الملك أقطع قلعة تكريت مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق... فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكريت، و أضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود»^(٣)^(٤).

(١) المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥.

(٣) أورد كل من النويري وابن كثير نفس رواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر: (النويري: نهاية

الأرب، ج ٢٨، ص ٣٥٤؛ ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٢).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦.

وقد أورد ابن أبى طى نفس هذا الموضوع بمزيد من التفصيل فى رواية أخرى له ذكرها ضمن أحداث عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ونقلها عنه «ابن الفرات»، فقال: «وولى السلطان مسعود العراق لمجاهد الدين بهروز وخرج إليه، وفوض مجاهد الدين بهروز أمر تكريت والقلعة إلى الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى واعتمد عليه فى جميع أموره وقرر أمره من جهة السلطان مسعود وأنفذت له الخلع من العراق، وأنفذت أيضا لأخيه أسد الدين شيركوه خلعة من السلطان وكتاب الأدوية المفردة وغير ذلك»^(١).

ومن خلال مقارنة رواية ابن أبى طى مع كثير من المؤرخين، لاحظنا اتفاقه فى القسم الأول من روايته مع ما ذكره كثير من المؤرخين بشأن انتقال نجم الدين أيوب إلى العراق وعمله به قبل ولايته تكريت، فاتفق ابن خلكان معه فى تحديد عهد السلطان السلجوقى «محمد بن ملكشاه» كبدية لظهور الأسرة الأيوبية، ولكنه اختلف مع ابن أبى طى فى تحديد الاسم الذى عاصر السلطان محمد بن ملكشاه أثناء ولايته فى تكريت، فذكر ابن أبى طى أنه كان نجم الدين أيوب، بينما ذكر ابن خلكان أنه كان والده شاذى كما سبق أن أوضحنا. وانفرد ابن أبى طى بما ذكره عن أن ولاية نجم الدين أيوب تكريت بدأت مباشرة من قبل السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه.

أما بالنسبة لروايته فى القسم الثانى فقد لاحظنا أنه لم يكن واضحا ودقيقا فى تحديد فترة ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت، فبعد أن أوضح فى القسم الأول من روايته بداية ولاية نجم الدين أيوب فى تكريت فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٢ - ٥١١ هـ /

١٠٩٩ - ١١١٨ م)، نجده ينتقل فى القسم الثانى إلى توضيح ولايته لها من قبل بهروز الخادم فى عهد السلطان مسعود بن محمد (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ٣٢، ١١٣٣ - ١١٥٢ م)،

وبين هذين القسمين مدة ستة عشر عاما تقريبا لم يوضح فيها أحوال نجم الدين أيوب، ثم ألمح بعد ذلك أثناء تناوله ولاية نجم الدين أيوب تكريت من قبل بهروز الخادم

(١) المصدر السابق، م ٢، ج ٤، ورقة ٢٠ (مخطوط).

إلى استمرار ولاية نجم الدين أيوب في تكريت قبل عهد السلطان مسعود، حيث ذكر أن بهروز الخادم أقر نجم الدين أيوب في، ولاية تكريت وفي هذا إشارة إلى أنه وافق على استمراره في حكم تكريت.

ولم يكن ابن أبي طي دقيقا عندما حدد عهد السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ٣٢ / ١١٣٣ - ١١٥٢ م) بداية لتاريخ ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم، ذلك لأنه على الرغم من أن كثيرا من المؤرخين لم يحددوا تاريخ العام أو الفترة التي تولى فيها نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم إلا أن هناك بعض الأحداث التاريخية التي أكدت ولاية نجم الدين أيوب تكريت نيابة عن بهروز الخادم قبل حكم السلطان مسعود بن محمد العراق في عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م.

فذكر المؤرخ «العماد الأصفهاني» أن عمه «أبا نصر أحمد الملقب بعزیز الدين» كان قد ألقي القبض عليه في بداية عام ٥٢٥ هـ / ٣٠ - ١١٣١ م، وأودع لدى بهروز الخادم في قلعة تكريت، وأشاد العماد بنجم الدين أيوب أثناء ولايته في تكريت في ذلك الوقت، حيث رفض القيام بقتل عمه، وقام بذلك بهروز الخادم^(١)، كما أكد ذلك أيضا بعض المؤرخين في عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، أثناء تناوهم لأحداث هزيمة عماد الدين زنكي ولجونه إلى نجم الدين أيوب في تكريت، وتقديم نجم الدين كل العون والمساعدة إليه، حيث أوضحوا أن بهروز الخادم عاتب نجم الدين أيوب على ما قدمه من مساعدات لعماد الدين زنكي^(٢)، ومن الملاحظ أن ابن أبي طي أورد أيضا هاتين الحادتين في كتاباته^(٣)، إلا أنه لم يحدد تاريخ حدوثهما، وسوف نتناول هذه الأحداث بالتفصيل في الصفحات القادمة.

كذلك لم يكن ابن أبي طي دقيقا عندما حدد تاريخ إقطاع بهروز الخادم تكريت في

(١) تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار البنداري، ص ١٤٢، ١٥٢، ١٥٥.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٣؛ المقرئ: المقفي، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦ - ٥٣٧ (رواية ابن أبي طي).

عهد السلطان مسعود بن محمد، ذلك لأن تكرير كانت إقطاعاً لبهروز الخادم قبل ولاية السلطان مسعود في عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م كما أوضحنا في الفقرة السابقة، وقد وقع في هذا الخطأ أيضاً بعض المؤرخين^(١)، ويرجع هذا إلى عدم توفر معلومات مؤكدة

لدى كثير من المؤرخين عن تاريخ إقطاع بهروز الخادم تكرير، ولهذا رأينا أن البحث في تاريخ ولاية بهروز الخادم تكرير يفيدنا في تقريب آراء كثير من المؤرخين حول بداية حكم نجم الدين أيوب في تكرير نيابة عن بهروز الخادم.

ومن خلال دراستنا لتاريخ بهروز الخادم تبين لنا أن تكرير كانت إقطاعاً له قبل عهد السلطان مسعود بفترة طويلة، وظهر ذلك من خلال كتابات «ابن الأثير» حيث أشار في أحداث عام ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م إلى قيام بهروز الخادم بمراسلة الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٤ م) من تكرير ليحذره من بعض الأخطار الخارجية التي في طريقها إلى غزو العراق^(٢). كما وردت إشارة أخرى في كتابات ابن الأثير تؤكد ولاية بهروز الخادم تكرير في عهد السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٢ - ٥١١ هـ / ١٠٩٩ - ١١١٨ م) حيث أشار في بداية أحداث عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه في ذي الحجة عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، إلى عزل بهروز من شحنة، بغداد وأوضح أنه اتجه بعد عزله إلى تكرير، التي «كانت له» على حد قوله^(٣).

وفي هذا تأكيد بأن تكرير كانت تابعة لبهروز الخادم على الأقل منذ عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، وقبل هذا العام كانت آخر إشارة وصلتنا عن ولاية تكرير في صفر عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م، حيث تولاها الأمير «سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد»، لمدة عام حتى قتل في رجب عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م^(٤).

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٥١؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣١٧. وانظر أيضاً: النويري: المصدر السابق، ج ٢٧، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٠. وانظر أيضاً: النويري: المصدر السابق، ج ٢٧، ص ٩.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٥.

وبهذا صار لدينا مدة تقريبية للفترة التي بدأت خلالها ولاية بهروز الخادم تكريت، وتبدأ هذه الفترة منذ عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م حتى عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م، وهناك عدة شواهد تشير إلى إقطاع بهروز الخادم تكريت بعد قتل الأمير صدقة ابن مزيد، وذلك لأنه في الوقت الذي صادر فيه السلطان «محمد بن ملكشاه» أملاك «صدقة ابن مزيد» وصارت تحت تصرف نوابه منذ ذلك الوقت حتى وفاته في عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م^(١)، بدأت علاقته ببهروز الخادم تزداد يوما بعد يوم فعهد إليه السلطان محمد بولاية شحنة بغداد في عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٩، ٨ م^(٢)، كما فوض إليه في نفس العام أيضا عمارة الجامع

الذي يحمل اسم السلطان محمد، وبناء دار السلطنة، وأنهى بناءها بعد سبع سنوات في عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م^(٣) كما تولى الشحنة مرة أخرى عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م، وأثبت بهروز الخادم في ذلك كله كفاءة كبيرة، وحظى بمكانة كبيرة لدى السلطان محمد، حسده عليها كثير من الأمراء، وكان هذا سببا لعزله من شحنة بغداد بعد وفاة السلطان محمد^(٤).

ونستخلص من خلال كل ما عرضناه من آراء المؤرخين، ورواية ابن أبي طي، وأيضا من خلال ما ظهر لنا عن الفترة التي أقطع فيها بهروز الخادم تكريت، أن الأسرة الأيوبية تولت الحكم في تكريت كما أجمع معظم المؤرخين نيابة عن «بهروز الخادم»، وأن تاريخ ولايتهم فيها بدأت كما ذكر «ابن أبي طي» و«ابن خلكان» في عهد السلطان السلجوقي «محمد بن ملكشاه» (٤٩٢ - ٥١١ هـ / ١٠٩٩ - ١١١٨ م)، وتحديدًا في خلال الفترة ٥٠١ - ٥١١ هـ / ١١٠٨ - ١١١٨ م، وهي الفترة التي نرجح أن يكون أقطع خلالها بهروز الخادم تكريت.

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٩٨، ١١٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٥٧.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩، ص ١٥٨، ١٧٥، ١٨٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٥٧.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٠.

أما بالنسبة لولاية الأسرة الأيوبية في تكريت، فالشائع لدى كثير من المؤرخين أن نجم الدين أيوب هو الذي تولاهما، وقد أشار ابن خلكان - كما أوضحنا - إلى ولاية شاذي قبل ولده نجم الدين أيوب، وإن كنا لم نجد ما يؤكد رواية ابن خلكان، إلا أننا نميل إلى الأخذ برأيه، نظرا لطول الفترة التي من المفترض أن يكون تولاهما نجم الدين أيوب بمفرده في تكريت، والتي تقدر بما يزيد عن العشرين عاما، وذلك إذا افترضنا أنه تولاهما فقط منذ عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م أي قبل وفاة السلطان محمد بن ملكشاه مباشرة، حتى خروجه منها في عام ٥٣٢ هـ / ١١٢٨ - ٢٧ م كما سنوضح بعد قليل.

سياسة نجم الدين أيوب في تكريت:

اهتم ابن أبي طي في روايته عن ولاية نجم الدين أيوب في تكريت، بتوضيح بعض ملامح السياسة التي اتبعها نجم الدين أيوب خلال فترة حكمه فيها، وقد لاحظنا من خلال قراءتنا في كثير من المصادر الإسلامية، أن ابن أبي طي انفرد بينهم بتخصيص جزء من روايته عن ولاية نجم الدين أيوب في تكريت للكتابة في هذا الموضوع، وقد أشار ابن أبي طي إلى أحد مصادره التي استقى منها بعض معلوماته عن سياسة نجم الدين أيوب في تكريت، وهو كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» للمؤرخ «العماد الأصفهاني»، وقد أفاده هذا الكتاب في الاستشهاد بإحدى الحوادث التي تعكس بعض ملامح سياسية نجم

الدين أيوب في تكريت، ومن الملاحظ أن هذه الحادثة كانت من الحوادث المشهورة، وذكرها كثير من المؤرخين، ولكنها لم تلفت انتباههم للاستدلال بها على سياسة نجم الدين أيوب في تكريت.

تناول ابن أبي طي في روايته عن هذا الموضوع جانبا من سياسة نجم الدين أيوب الداخلية في تكريت، وعرض من خلالها لجهوده في حفظ الأمن، وفي العمل على ازدهار تكريت دينيا وعلميا. كما أوضح بعض ملامح العلاقة بين نجم الدين أيوب وبهروز الخادم وإلى تكريت، من خلال عرضه لبعض الأحداث التي وقعت في تكريت، ومواقف

نجم الدين أيوب تجاه تلك الأحداث، و أخيرا تناول أثر السياسة التي اتبعتها نجم الدين أيوب على علاقته بأهل تكريت.

أشار ابن أبي طي في بداية روايته عن سياسة نجم الدين أيوب الداخلية في تكريت إلى جهوده في حفظ الأمن بها، ولهذا أمن معه «بهروز الخادم» على أمواله وذخائره، فقال: «فقام في ولايتها أحسن قيام وَضَبَطَهَا أَكْرَم ضَبْط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العبث.. وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل ذلك منوطا بالأمير نجم الدين ومَعْدُوقًا بِهَمَّتِهِ». كذلك قام نجم الدين بتشجيع العلماء ورجال الدين، واهتم بالوافدين منهم إلى تكريت، وأجزل لهم العطاء، وحرص أيضا على طلب المتميزين من رجال الدين من خارج تكريت للاستفادة من علمهم هناك قال ابن أبي طي: «وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به إلا هل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه»^(١).

ثم أوضح ابن أبي طي بعض ملامح سياسة نجم الدين أيوب مع والي تكريت بهروز الخادم من خلال عرضه بعض الأحداث التي وقعت في تكريت، ومواقف نجم الدين أيوب تجاه تلك الأحداث، وظهر من خلالها أنه كان في بعض الأحيان لا يلتزم بأوامر بهروز الخادم، خاصة إذا تعارضت مع مبادئه في توخي العدل والإحسان إلى المحتاج، مما يوضح لنا أن مبادئه وسمات شخصيته كانت تنعكس على إدارته في تكريت، ولهذا ارتبط به أهل تكريت ارتباطا كبيرا، وحزنوا على فراقه كما سنوضح فيما بعد.

وقعت أولى هذه الأحداث في تكريت ما بين عامي ٥٢٥ - ٥٢٧هـ / ١١٣٠ - ١١٣٣م، وظهر فيها بوضوح رفض نجم الدين أيوب تنفيذ أوامر بهروز الخادم، لتعارضها مع توحيه العدل ورفضه للظلم، وكان بهروز الخادم بوصفه يعمل من قبل

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٥ - ٥٣٦.

السلطين السلاجقة قد جعل قلعته في تكرت سجنًا لمن يريدون إبعاده^(١)، فاستقبل في أوائل عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١-٣٠ م «أبا نصر أحمد الملقب بعزير الدين»^(٢)، وهو عم المؤرخ «العماد الأصفهاني»، فسجنه في القلعة، وكان قد قبض عليه لأنه كان يتولى الخزانة في دولة السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه» (٥١١-٥٢٥ هـ / ١١١٨-١١٣١ م)، وكان السلطان «سنجر بن ملكشاه»

(٥١٢-٥٥٢ هـ / ١١١٨-١١٥٧ م)، قد طلب من ابن أخيه السلطان محمود استعادة بعض الجواهر المودعة لديه بالخزانة، ونظرًا لأنه كان لا يريد إعادتها إليه، أشار عليه وزيره «الدركزيني»^(٣) بإبعاد عزير الدين، حتى لا يتمكن السلطان سنجر بن ملكشاه من سماع شهادته في هذا الموضوع^(٤). ثم تمكن الوزير الدركزيني من تزوير توقيع من

(١) وحدث ذلك أيضا في عام ٥٣٢ هـ، حيث قبض السلطان مسعود بن محمد علي شحنة بغداد «البقش السلاحي» وأرسله إلى هروز الخادم في تكرت ليقتله، لكنه أغرق نفسه قبل قتله. (ابن الجوزي: المتظم، ج ١٠، ص ٧٢، ٧٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٦٣)

(٢) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد الأصبهاني: ولد بأصبهان في عام ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠-٧٩ م، تولى العديد من المناصب المهمة في دولة السلاجقة، فعمل نائبا للوزير «كمال الملك السميرمي»، كما تولى ديوان الاستيفاء في وزارة «شمس الملك بن نظام الملك»، وبعد مقتل الوزير شمس الملك في عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م، عرض عليه السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه الوزارة، فأبأها، ثم استقال من ديوان الاستيفاء وتولى الخزانة للسلطان محمود، وكان هذا المنصب سببا للقبض عليه كما أوضحنا في المتن (العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢٣، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٨-١٨٩).

(٣) هو أبو القاسم الأنسابادي الدركزيني الملقب بزين الدين: تولى الوزارة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، وكانت سيرته سيئة، وعزل من الوزارة لمدة عام، ثم أعيد إليها، واستمر فيها حتى بعد وفاة السلطان محمود، وتولاها لأخيه «طغرل ابن محمد»، وقتل في عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣-٣٢ م بعد أربعين يوما من مقتل عزيز الدين (العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٦).

(٤) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ١٤٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٣٣؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٩.

السلطان سنجر يقضى بقتل عزيز الدين، وطلب من بهروز الخادم في عام ٥٢٧ هـ / ٣٢ م. ١١٣٣ م^(١) تنفيذه، فأرسل إلى نجم الدين أيوب خطابا في هذا المعنى، وكان يحمل بين طياته تهديدا ووعيدا في حالة الرفض، ولكن نجم الدين أيوب لم يعبا بهذا التهديد، ورفض طلبه، لأنه كان - كما يقول العماد الأصفهاني - رجلا مُسلما فما رأى أن يكون لرجل مسلم مسلما، كما كانت علاقته بعزيز الدين قد توطدت وكذلك أخيه أسد الدين شيركوه، فجاء بهروز الخادم إلى قلعة تكريت لتنفيذ الأمر بقتله، وحاول نجم الدين أيوب منعه، لكنه لم يتمكن وقام بهروز بقتله^(٢).

وقد أورد أبو شامة ملخصا لما ذكره ابن أبي طي عن هذا الموضوع، وفيه تناول ابن أبي طي خبر القبض على عزيز الدين، ورفض نجم الدين أيوب تنفيذ الأمر بقتله، وأورد ابن أبي طي فيه - نقلا عن العماد الكاتب الأصفهاني - بعض السمات التي ظهرت في شخصية نجم الدين، والتي انعكست على قراره، فقال: «وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السلجوقية» الأمير نجم الدين، وقرظه و أثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثره خيره أشياء حسنة؛ وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدرگزيني، وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدرگزيني»^(٣).

ثم وجدنا رواية أخرى لابن أبي طي عن هذا الموضوع أكثر تفصيلا، أوردها له المؤرخ «ابن الفرات» ضمن أحداث عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م. قال ابن الفرات قال ابن أبي طي ما معناه: «حكى» العماد الكاتب «من دين الأمير» نجم الدين أيوب بن شاذى بن

(١) أورد العماد الأصفهاني أن عمه قتل في عام ٥٢٧ هـ / ٣٢ - ١١٣٣ م، وكان بعض المؤرخين قد

ذكروا أنه قتل في عام ٥٢٦ هـ / ٣١ - ١١٣٢ م. (العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص

١٥٦؛ ابن الجوزي: المنظم، ج ١٠، ص ٢٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٣٨٨).

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٥٥ - ١٥٦؛ سنا البرق الشامي، ص ١٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦.

مروان»، والد السلطان صلاح الدين يوسف، وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشيا حسنة في... جليلة في مقدارها، من ذلك أن الدرگزني الوزير كتب إليه كتابا يعده فيه بالجميل والمنزل الجليل وحمل المال الجرم على أن يقتل «عزيز الدين العزيز» الوزير عم العماد الكاتب الأصفهاني، فامتنع من ذلك و أكبره، ورد هذا القول و أنكره... من عظمه، وتصور من ألمه، وأراد العصيان لو وجد إليه سيلا، وعول على منع العزيز بنفسه لو وصل إلى ذلك، وبلغ من امتناعه أن كاتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت وعظم عليه هذا.....، وأغلظ له في المقال حتى صار امتناع نجم الدين وسيلة لبهروز في الاحتجاج على الوزير الدرگزني في المدافعة عن العزيز، ولولا تغير الوزير الدرگزني على بهروز وإخافته له حتى تولى قتل العزيز بنفسه، وأخفى ذلك عن نجم الدين لأنه لو كان علم لتوصل إلى إبطاله و دافع عن..... العزيز»^(١).

أما الحادثة الثانية التي ذكرها ابن أبي طي، فقد وقعت أحداثها في عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وتناول فيها بداية العلاقة بين نجم الدين أيوب وأتابك عماد الدين زنكي في تكريت، وانفرد فيها ابن أبي طي ببعض التفاصيل التي تلقى مزيدا من الضوء حول بداية تاريخ العلاقات بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية من ناحية، وتعكس من ناحية أخرى بعض ملامح العلاقة بين بهروز الخادم ونجم الدين أيوب، وتوضح أيضا بعض سمات نجم الدين الشخصية وأثرها على سياسته في حكم تكريت.

بدأ ابن أبي طي روايته عن هذا الموضوع بتوضيح الأسباب التي أدت إلى لجوء عماد الدين زنكي إلى نجم الدين أيوب في تكريت، واتفق فيها مع ابن الجوزي^(٢)، وهي

(١) المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٣٠-٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٥-٢٦. وانظر أيضا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٣٥. ٣٣٦؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦-٥٣٧ (رواية ابن أبي طي)؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧-٤٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤.

تتلخص في الصراع على سلطنة دولة السلاجقة في العراق بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه في شوال عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م، وانقسام المتنازعين على السلطنة إلى فريقين: تزعم الفريق الأول الملك «سلجوق بن محمد بن ملكشاه»، وانضم إليه أتابعه «قراجه الساقى»، وحظى هذا الفريق بتأييد الخليفة العباسى المسترشد بالله، وتزعم الفريق الثانى الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه، وانضم إليه زنكى.

قال ابن أبى طى: «ثم إن السلطان مسعودا حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو و«أتابعك زنكى ابن آق سنقر» في بغداد وجرّدا عسكرا ضخما وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد، واتصل هذا الخبر «بقراجه الساقى»، وهو أتابعك ابن السلطان مسعود، فجرد ألف فارس للقاء زنكى، ثم أردفهم بعسكر ضخم، فانهمز زنكى وقتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ما كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدة جراحات»^(١).

وقد قام نجم الدين أيوب فور وصول عماد الدين زنكى بتقديم المساعدة إليه، وقد ذكر «ابن الأثير» أن هذه المساعدة اقتصرّت فقط على إقامة المعابر وتقديم السفن إليه،

لتسهيل عبوره مع قواته نهر دجلة للعودة إلى الموصل^(٢).

وقد أنفرد ابن أبى طى في روايته بعض التفاصيل الأخرى التى تلقى مزيدا من الضوء حول المساعدة التى قدمها نجم الدين أيوب إلى عماد الدين زنكى، فألمح في بداية روايته إلى حرص نجم الدين أيوب على إحاطة مساعدته لعماد الدين زنكى بالكتمان، فقال ابن أبى

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦-٥٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٣٦، ج ٩، ص ١٠١. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦؛ ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥١٠؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٤-٣٥٥؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٠٩؛ المقرئ: المقفى، ج ٢، ص ٣٧٩؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤.

طى عند وصول زنكى إلى سور تكريت : «وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه «فمطحاه»^(١) إلى القلعة بحبال»^(٢)»^(٣) ، وهذا يوضح أنه قصد إدخاله إلى القلعة سرا وأنه لم يفتح له أبوابها، خشية أن يعلم أعوان بهروز الخادم بهذا الأمر، لأنه من المتوقع أن يميل بهروز الخادم بوصفه يعمل من قبل السلاطين السلاجقة إلى الفريق الأول الذى حظى بتأييد الخليفة العباسى.

وقد أكد ابن خلكان ما ألح إليه ابن أبى طى حيث ذكر أن بهروز الخادم بعد أن علم بما قام به نجم الدين أيوب مع عماد الدين زنكى، أنكر عليه فعله هذا، وقال له: «كيف ظفرت بعدونا فأحسنتم إليه وأطلقتة»^(٤).

ثم أنفرد ابن أبى طى المساعدات التى قدمها نجم الدين أيوب إلى زنكى، فقال: «وداؤيا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقربا إليه ؛ فأقام عندهما بتكرت خمسة عشر يوما. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه «الظهر»، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى إنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من أمتعة»^(٥)»^(٦).

(١) المتخ: وصفه ابن منظور مثل جذب رشاء الدلو ثم بيد و تأخذ بيد علي رأس البشر . (لسان العرب ج ١٣ ، ص ١٣).

(٢) اتفق «ابن الفرات» و «المقريزي» مع ابن أبي طي ، وأوردا نفس أسلوبه عند ذكره لموقف نجم الدين أيوب من زنكى ، ورفعاه إلى القلعة بالحبال . (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥١ (مطبوع) ؛ المقريزي : اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٦).

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٤٣ . وانظر أيضا : ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٥١ ؛ المقريزي : اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ ؛ المقفى ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٥) اتفق المؤرخ «ابن كثير» مع رواية ابن أبي طي في هذا الجزء ، وذكر نفس أسلوبه فقال : «اجتاز به .. عماد الدين زنكى منهزما ... فأواه وداوى جراحاته ، وأقام عنده مدة خمسة عشر يوما ، ثم ارتحل إلى بلده الموصل» . (البداية ، ج ١٢ ، ص ٧٩٢).

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٧ .

هكذا اتضح لنا من خلال رواية ابن أبي طي كيف طغى الجانب الإنساني في شخصية نجم الدين أيوب على قراره بشأن إنقاذ حياة زنكى، وظهر ذلك من خلال حجم المخاطرة التى واجهها، لأنه كان يعلم أن تقديمه المساعدة إليه قد يوقعه فى مشاكل مع بهروز الخادم وإلى تكريت، ومع ذلك أقدم عليها، وإن كان أحاطها فى البداية بالكتبان إلا أن بهروز الخادم علم بما قام به بعد أن غادر زنكى القلعة، ولهذا لاقى هذا المعروف صدا كبيرا فى نفس عماد الدين زنكى، وكان كما يقول ابن أبي طي: «يرى لأيوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مُقامه بتكريت»^(١).

وقد عبر بعض المؤرخين عن أثر هذا المعروف الذى قدمه نجم الدين أيوب على قيام الدولة الأيوبية بعد ذلك بقولهم: «فكان هذا الفعل من نجم الدين سببا للسعادة التى آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض، فلينظر العاقل إلى ثمرة الجميل و فعل الخير»^(٢).

و ذكر ابن أبي طي تفاصيل هذه الحادثة فى رواية أخرى أوردها له ابن الفرات فقال: «لما بلغ الأمير قراجا أن الأمير عماد الدين زنكى وصل إلى تكريت وهو قاصد بغداد أرسل ألف فارس جريدة للقا الأمير عماد الدين زنكى وكانت الحرب، واشتد القتال فانهمزم الأمير عماد الدين زنكى، وقتل جماعة من أصحابه وأسر جماعة كثيرة من الأمراء.... ووصل الأمير عماد الدين زنكى أتاك إلى سور تكريت وبه عدة جراحات فمتحه واليها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى وأخوه الأمير أسد الدين شيركوه بالحبال ودخل إلى تكريت وأحسن خدمته، وكانت هذه الفعلة... لهما عند الأمير زنكى أتاك رآها لهما وأقام زنكى بتكريت خمسة عشر يوما وسار إلى الموصل وخرج إليه أهلها»^(٣).

من خلال كل ما سبق اتضح لنا كيف غلب الطابع الإنساني فى شخصية نجم الدين

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٧.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٣٦؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨ - ٤٩؛

أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٣٤.

أيوب على سياسته في حكم تكريت، وظهر ذلك كما ذكرنا من خلال بعض مواقفه مع بعض الشخصيات من خارج تكريت، ولهذا كان أمرا طبيعيا أن تنعكس سمات شخصيته وتظهر بوضوح على علاقته الداخلية بأهل تكريت، وقد عبر ابن أبي طي عن ذلك بقوله: «وكان نجم الدين عظيما في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة... وساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم». ثم وصف حال أهل تكريت عندما اضطر نجم الدين أيوب إلى مغادرة القنعة قائلا: «وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه و أظهر البكاء والأسف على مفارقتها»^(١).

وكان نجم الدين أيوب قد اضطر إلى ترك قلعة تكريت بسبب أخيه أسد الدين شيركوه وقد أجمع على ذلك ابن أبي طي وكثير من المؤرخين، و أوضحوا أن أسد الدين شيركوه كان قد قام بقتل أحد العاملين بالقلعة، فطلب عندئذ بهروز الخادم من نجم الدين أيوب مغادرتها^(٢). وقد تناول ابن أبي طي هذا الموضوع بمزيد من التفصيل، كما تناوله أيضا «ابن خلكان»، واختلف معه حول تحديد شخصية المقتول، وفي الظروف التي أدت إلى ذلك. قال ابن أبي طي: «وكان أخوه «شيركوه» معه في القلعة، وكان شجاعا باسلا، ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها، فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوما لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة «قوارص»^(٣)، وكان رجلا نصرانيا، فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعدا إلى القلعة فبعث به بكلمة مُخِضَّة، فجرد أسد الدين

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦ - ٥٣٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٧.

رواية ابن أبي طي)؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧، ج ٧، ص ١٤٣؛ ابن واصل:

المصدر السابق، ج ١، ص ٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ المقرئ: المقفى، ج ٢،

ص ٣٧٩؛ الحنبلي: المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣) قوارص: مفردا قارصة وهي الكلمة المؤذية (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ١٠٩).

سيفه وقتل النصراني وصعد إلى القلعة، وكان مهيبا، فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني بشئ، وأخذ النصراني برجله فألقى من القلعة^(١).

ثم أوضح ابن أبي طي موقف بهروز الخادم من هذا الحادث فقال: «و بلغ بهروز صاحب قلعة تكرت ما جرى، وحضر عنده مَنْ خوفه جرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منها أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صُحبة الكتاب؛ فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال^(٢)»^(٣).

هكذا أوضح ابن أبي طي أن السبب الرئيسي وراء خروج الأسرة الأيوبية من تكرت كان قتل أسد الدين شيركوه لأحد الكتاب النصاري التابعين لبهروز الخادم، وفي رأينا أن قرار بهروز الخادم بمغادرة الأسرة الأيوبية تكرت كان لعدة أسباب، من ضمنها

استهانة شيركوه بأحد أعوانه وقتله، ونرجح أيضا من أسباب ذلك أن الكاتب الذي قتله شيركوه كان من النصاري، حيث لاحظنا من خلال كتابات ابن أبي طي اهتمام بهروز الخادم بتعيين الكتاب النصاري في قلعتهم في تكرت، ففضلا عن الكاتب الذي قتله شيركوه وردت في كتاباته إشارة إلى كاتب آخر - وسنذكر المناسبة التي جاء ذكره فيها بعد قليل - وما يؤكد ذلك وصف المؤرخ المسيحي «ابن العبري» (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) بهروز الخادم بأنه كان محبا للنصاري^(٤)، ورواية ابن العبري ذات أهمية كبيرة نظرا لأنه كان يعمل رئيسا للأساقفة وتنقل في بلدان العراق ومنها تكرت، واهتم في كتاباته بتوضيح

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٧.

(٢) اتفق المؤرخ «النوري» مع ابن أبي طي في أسباب مغادرة نجم الدين أيوب تكرت، وأورد ملخصا لروايته بنفس أسلوبه. (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٥٥).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٧-٥٣٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٦.

وضع المسيحيين في مختلف لبلدان^(١).

وقد تناول أيضا المؤرخ «ابن خلكان» الحادثة التي أدت إلى خروج الأسرة الأيوبية من تكريت، واختلف مع ابن أبي طي في توضيح الظروف التي أدت إلى تورط أسد الدين شيركوه في عملية القتل، فذكر أن إحدى النساء كانت قد تعرضت للأذى من قبل «الإسفهلار» في القلعة، واشتكت منه إلى أسد الدين شيركوه و نجم الدين أيوب فقام أسد الدين شيركوه لذلك بقتله، وأوضح ابن خلكان أن نجم الدين أيوب لم يرض بما فعله أخيه، فقام باعتقاله، وكتب إلى بهروز الخادم بذلك فجاء رد بهروز الخادم - وأورد ابن خلكان عدة أسطر منه - وفيه طالب الأسرة الأيوبية بالرحيل عن القلعة^(٢).

أما بالنسبة لتاريخ مغادرة الأسرة الأيوبية تكريت، فقد اتفق ابن أبي طي و ابن خلكان على أن خروجهم منها كان في نفس الليلة التي ولد فيها «صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب»^(٣)، وحدد ابن أبي طي تاريخ مولد صلاح الدين في عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٣ م، فقال: «في هذه السنة ولد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين بقلعة تكريت وأبوه يومئذ متوليها من قبل الأمير بهروز الخادم»^(٤).

واختلف ابن أبي طي بذلك مع ابن شداد الذي حدد تاريخ مولده في عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ - ١١٣٨ م^(٥). ثم أوضح ابن أبي طي أن ولادة صلاح الدين في هذه الليلة جعلت

(١) المصدر نفسه، ص ٩، ١٢ (مقدمة الكتاب).

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧. وانظر أيضا: ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٢؛ المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٩ (رواية ابن أبي طي)؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٥؛ النجيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٣٧.

(٤) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٣، ورقة ٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٦. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٤٣٤.

والده يتشاءم منه، وأكد ذلك أيضا ابن خلكان^(١).

وقد كتب ابن أبي طي عن هذا الموضوع بمزيد من التفاصيل، وانفرد به بين كثير من المؤرخين، واعتمد فيه على رواية «والده» التي اعتمد فيها على آراء العديد من الشخصيات الهامة التي كانت على صلة بنجم الدين أيوب. فقال: «وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني «سعد الدولة أبو الميامن المؤلي»، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدثني أيضا بهذه الحكاية «مجد الدين بن داية الملك الصالح» قال: حدثني «حسام الدين سنقر» غلام الأمير «نجم الدين أبي طالب»، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي^(٢).

ثم أوضح في روايته أنه بعد ولاية صلاح الدين الوزارة في مصر، ووصول والده نجم الدين أيوب إليه، اجتمعا في بداية عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م في دار الوزارة، وكان حاضرا في هذا المجلس كبار الأمراء والقضاة في الدولة، وحضر المجلس أيضا أحد الكتاب النصاري وكان قد خدم مع نجم الدين أيوب في تكريت، فذكر نجم الدين أيوب يوم ولادة ابنه يوم خروجه من تكريت ومدى التشاؤم الذي كان عليه، وحاول عندئذ هذا الكاتب أن يجعل نجم الدين أيوب يستبشر بولادته، وبعد مضي كل هذه السنوات، وبلوغ ولده صلاح الدين أعلى المناصب ذكره الكاتب بهذه القصة.

قال ابن أبي طي: «قال (حسام الدين سنقر) كنت في صحابه الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوى بنى العباس، في أول سنة سبع وستين وخمسمائة؛ واتفق أني كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٩ (نص ابن أبي طي)؛ ابن خلكان: المصدر

السابق، ج ٧، ص ١٤٥. وانظر أيضا: ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٣.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٨.

قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح و السرور ما قد أذهل العقول. فبينما الناس كذلك إذ تقدم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله. ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه^(١).

ثم قال: «والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكرت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخى أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصراني ؛ وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن، فتقل على الخروج منها والتحول عنها إلى غيرها، واعتصمت لذلك. وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشأمت به وتطيرت لما جرى على، ولم أفرح به ولم أستبشر. وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه. وكان هذا النصراني معي كاتباً ؛ فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن أذن له في الكلام، فأذنت له، فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي وأى شئ له من الذنب، وربما استحق ذلك منك وهو لا يتفع ولا يضر ولا يغنى شيئاً ! وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل القدر. فعطفني كلامه عليه ؛ وهاهو ذا قد أوقفني على ما كان قاله. فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه^(٢).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٨-٥٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

العلاقة بين عماد الدين زنكى والأسرة الأيوبية:

تناولنا فيما سبق بداية العلاقة بين عماد الدين زنكى ونجم الدين أيوب فى تكريت فى عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، كما أوضحنا أن العلاقة بينهما ظلت قائمة حتى بعد انتقال عماد الدين زنكى إلى الموصل. ولهذا عندما طلب بهروز الخادم من نجم الدين مغادرة قلعة تكريت اجتمع مع أخيه أسد الدين شيركوه، وقررا كما أوضح ابن الأثير الانتقال إلى عماد الدين زنكى فى الموصل، فانتقلت الأسرة الأيوبية إليه فأحسن إليهم، ومنحهم إقطاعات جليلة^(١).

وقد أنفرد ابن أبى طى ببعض التفاصيل الأخرى عن علاقة الأسرة الأيوبية بعماد الدين زنكى منذ وصولهم إلى الموصل، فذكر الحفاوة الكبيرة التى قابلهم بها، حيث أعد لهم موكبا لاستقبالهم، ثم منحهم العديد من الأقطاعات، فقال: «ولما اتصل بأتابك زنكى قُدومُها أفرحه ذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراما عظيما وأقطعهما فى بلد «شهرزور»^(٢) إقطاعا سنيا؛ وقيل إنه أقطع أسد الدين «بالمؤزر»^(٣)»^(٤).

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٨؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧؛ النويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٥؛ المقرئى: المقفى، ج ٢، ص ٣٧٩؛ الحنبلى: المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) شَهْرُزُورُ: كورة واسعة فى الجبال بين إربل وهمدان، وكان عماد الدين زنكى قد ضمها إلى أملاكه فى عام ٥٣٣ هـ / ٣٨ - ١١٣٩ م. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٨٤).

(٣) مُؤَزَّرُ: كورة تقع بجزيرة أقور، منها نصيبين الروم الواقعة على شاطئ الفرات. (المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢١، ص ٢٨٩).

(٤) اتفق ابن الفرات مع ابن أبى طي فى ذكر الإقطاع الذى منحه أتابك زنكى لشيركوه. فقال: «فأقطعهُ المؤزر». (تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ص ٥٢). أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٨.

ومنذ ذلك الوقت بدأت العلاقة بين الأسرة الأيوبية والدولة الأتابكية تزداد ترابطاً يوماً بعد يوماً، وقد أثرت العلاقة التي نشأت بين أسد الدين شيركوه وجمال الدين الأصفهاني - وزير عماد الدين زنكي - تأثيراً قوياً على العلاقة بين الأسرة الأيوبية وعماد الدين زنكي، وقد انفرد ابن أبي طي بتفاصيل هذا الموضوع قائلاً: «وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته^(١)». وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قريباً من قلب أتابك زنكي وجعلها عنده بالمنزلة العظيمة^(٢)، وخرجاً معه إلى الشام وشهداً معه حروب الكفار وقاتل الفرنج، لعنهم الله تعالى، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء والفعل الغراء^(٣).

أولاً: علاقة زنكي مع نجم الدين أيوب:

أشارت كتابات ابن أبي طي إلى خوض نجم الدين أيوب بعض المعارك مع عماد الدين زنكي، فذكره بعد انتهاء حصار زنكي لقلعة بعلبك في عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وانفرد ابن أبي طي في هذا الموضوع بتوضيح بعض جوانب العلاقة بين نجم الدين أيوب وعماد الدين زنكي، حيث أظهرت روايته مدى تقدير زنكي واحترامه لنجم الدين أيوب، حيث قبل زنكي شفاعته في بعض الأسرى من الأمراء والقوات في قلعة بعلبك، عندما طلب منه إعفاء بعضهم من القتل، فأمر بالعفو عنهم وعلى من بقى من القوات وأطلق سراحهم^(٤).

قال ابن أبي طي: «وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيماني»،

(١) وقد دفن بالفعل أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب في المدينة المنورة في نفس تربة جمال الدين الأصفهاني.

(ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٣؛ التميمي: المدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٣٧).

(٢) اتفق ابن القرات مع ابن أبي طي وأورد نفس أسلوبه في توضيح العلاقة بين جمال الدين الأصفهاني و

أسد الدين شيركوه انظر: (تاريخ ابن القرات، ج ٤، ق ١، ص ٥٢ - ٥٣).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٨.

(٤) أوضحنا في فصل الدولة الأتابكية أسباب قيام زنكي بأسر وقتل الأمراء بقلعة بعلبك.

فحكى أنه أحضر في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولد أمرّد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتني قبل ولدي لثلا أراه يعالج سكرات الموت ! وكان «نجم الدين أيوب» واقفا، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفا من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله في الشيخ وولده، وقص عليه ما قاله فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقى من الجماعة^(١).

ولاية نجم الدين أيوب بعلبك:

كان عماد الدين زنكي بعد بسط سيطرته على بعلبك قد أناب عليها نجم الدين أيوب، وذكر ابن الأثير أنه جعله «دزداراً»^(٢) لقلعتها^(٣)، وقد أضاف ابن أبي طي بعض الامتيازات الأخرى التي منحها زنكي له في بعلبك، وهي تعد مؤشرا مهما يشير إلى قوة العلاقة بينها في ذلك الوقت، فأوضح أنه لم تكن لنجم الدين أيوب ولاية بعلبك فقط، وإنما وهبه نصفها، كما أوضح في رواية أخرى أنه كتب له ثلثها ملكا فقال: «ووهبه نصف بعلبك. وقيل إن نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولاه بعلبك، وكتب له ثلثها ملكا، واستقر فيها هو وأهله؛ ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي، فأخرجه منها على ما سنذكره»^(٤)،^(٥).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٨٦-٨٧.

(٢) دُزدار: بمعنى حافظ القلعة. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ١٤٢).

(٣) الباهر، ص ٥٩. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٨٦، ٣٣٠؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٢-١٤٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٨-٩؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٥٥؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٥٥؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٢٥؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٥٢؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٥.

(٤) كانت بعلبك قد خرجت عن سيطرة الدولة الأتابكية في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وملكتها قرأت دمشق، واستمر نجم الدين أيوب في ولايته لها من قبل أمير دمشق، وفي عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م عادت بعلبك مرة أخرى لسيادة الدولة الأتابكية، فأرسل نور الدين محمود نجم لدين أيوب إلى دمشق. وهذه الأحداث ستتناولها بالتفاصيل في الصفحات القادمة.

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٨٧.

ولم تقتصر العلاقة بين نجم الدين أيوب وزنكي عند حد أنانيته عنه في بعلبك، حيث أوضح ابن أبي طي مشاركة نجم الدين أيوب مع عماد الدين زنكي أثناء حصار دمشق في عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وانفرد ابن أبي طي في روايته عن هذا الحصار بتوضيح جانب مهم في هذه العلاقة، حيث أوضح أن العلاقة بينهما بلغت من القوة إلى حد أن كان عماد الدين زنكي يأخذ رأيه في بعض أموره المهمة.

ففي أثناء هذا الحصار قدّم ملك دمشق جمال الدين بن بوري (٥٣٣ - ٥٣٤ هـ / ١١٣٨ - ١١٣٩ م) عرضاً إلى عماد الدين زنكي يتضمن بعض الميزات التي يمنحها إليه في مقابل فك حصاره عن دمشق^(١)، واشتمل هذا العرض منحه خمسين ألف

دينار، ومدينة حمص. فعرض عماد الدين زنكي على نجم الدين أيوب هذا العرض، فأشار عليه بقبوله، وأوضح له الميزات التي تضمنها، وقد ذكر ابن أبي طي رأى نجم الدين أيوب في هذا العرض فقال: «(قال نجم الدين لزنكي) هذا مال كثير وقد حصل بلا تعب، وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم، وقد آلف أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببلدك»^(٢). ولكن عماد الدين زنكي لم يقتنع برأى نجم الدين أيوب، لرغبته في ضم دمشق إلى أملاكه فاستمر في حصارها.

ثانياً العلاقة بين زنكي وأسد الدين شيركوه:

أظهرت كتابات ابن أبي طي السابقة عن العلاقة بين جمال الدين الأصفهاني وزير زنكي وأسد الدين شيركوه أنه خاض العديد من المعارك مع عماد الدين زنكي، كما شارك شيركوه زنكي في آخر معاركه أثناء حصار قلعة جعبر في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد أشار ابن أبي طي إلى ذلك أثناء ذكره خبر مقتل عماد الدين زنكي أثناء هذا الحصار، حيث أوضح أن شيركوه كان قريباً من معسكر زنكي لحظة مقتله، فقال: «لما اتصل قتل أتابك

(١) تناولنا تفاصيل هذا العرض في فصل الدولة الأتابكية.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٨٧.

بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين^(١).

العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية في الشام:

شهدت العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية تطورا كبيرا، منذ ولايته حلب في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م حتى وفاته في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وظهر ذلك خلال العديد من الكتابات التي انفرد بها ابن أبي طي عن هذه العلاقة ومراحل تطورها.

أولا العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه:

كان أسد الدين شيركوه أكثر أفراد الأسرة الأيوبية ارتباطا بنور الدين محمود منذ عهد عماد الدين زنكي حيث كان يخدم في الجيش تحت قيادته^(٢)، ولهذا استمرت علاقته معه بعد مقتل زنكي، ولازم نور الدين محمود طوال فترة ولايته، وتطورت أحواله معه يوما بعد يوم، وكان لهذا الارتباط بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود أثرا كبيرا في علو شأن أولاد أخيه نجم الدين أيوب، وبصفة خاصة ولده «صلاح الدين يوسف»، ومن هنا تأتي أهمية دراسة العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه أولا، ثم نوضح بعد ذلك العلاقة بين نور الدين محمود ونجم الدين أيوب وأولاده.

وقد أبرزت كتابات ابن أبي طي العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود من خلال عرضه للدور الذي قام به شيركوه في ولاية نور الدين محمود حلب عقب مقتل أتابك زنكي في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذا الدور بين كثير من المؤرخين، الذين اهتم معظمهم بذكر الدور الذي قام به «صلاح الدين الياغيساني» - حاجب زنكي الأسبق - في تدبير أمور دولته في حلب^(٣)، ثم انتقال صلاح الدين بعد ذلك

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٤، ق ١، ص ٥٣.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ١٣ - ١٤؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩٠؛

ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٧؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨؛ ابن

إلى ولايته في حماة^(١).

دور أسد الدين شيركوه في ولاية نور الدين محمود حلب:

تناول ابن أبي طي في هذا الموضوع الدور الذي قام به أسد الدين شيركوه في ولاية نور الدين محمود حلب في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، فذكر أنه كان العقل المدبر وراء اتخاذ نور الدين محمود قراره بالانتقال إلى الشام، واختيار حلب مقراً للملكة، ثم تمكنه من دخول قلعة حلب.

أوضح ابن أبي طي في بداية روايته مدى اهتمام أسد الدين شيركوه بأمر نور الدين محمود منذ سماعه نبأ مقتل عماد الدين زنكي، فذكر أنه اتجه على الفور نحو خيمة نور الدين محمود، فقال: «لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين»^(٢)، وهناك دار بينهما حديث، أورد منه ابن أبي طي فقط الحديث الذي دار على لسان أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود.

وفيه أوضح شيركوه لنور الدين محمود تطورات الأمور في جيش والده عقب مقتله، كما عرض عليه وجهة نظره بشأن مستقبله في الشام. وقد عكس لنا هذا الحديث بعض

ملامح العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود قبل عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، فظهر في خلفيته أن العلاقة بينهما كانت وطيدة، ولهذا سمح نور الدين محمود لأسد الدين

شيركوه بالحديث معه في أهم أموره، كما ظهر في ختام هذا الحديث اقتناع نور الدين محمود برأي أسد الدين شيركوه فيما عرضه عليه بشأن مستقبله في الشام، وهذا يعد تطورا

الوردي: المصدر السابق، ص ٤٥؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٥، ص ٢٣٧.

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١١٩.

آخر في العلاقة بينهما.

بدأ أسد الدين شيركوه حديثه مع نور الدين محمود باطلاعه على مجريات الأمور في جيش والده، ومن ذلك الاستعدادات التي يقوم بها «جمال الدين الأصفهاني» - مدبر شئون زنكي الأسبق - من أجل توطيد ملك أخيه «سيف الدين غازي بن زنكي»^(١) في الموصل. فأوضح أنه انضم إلى هذا الفريق قوات الموصل، وعدد آخر من باقى القوات كما أبلغ شيركوه نور الدين محمود بما عرضه عليه جمال الدين الأصفهاني بشأن الانضمام معهم إلى الموصل - بحكم ما كان بينهما من صداقة، كما أوضحت كتابات ابن أبي طي من قبل - ولكنه رفض عرضه.

قال ابن أبي طي: «وقال (شيركوه) له: اعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعزم على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل، وقد انضوى إليه جُل العسكر، وقد انفذ إلى جمال الدين وأرادنى على اللحاق به فلم أعرج عليه»^(٢).

ثم عرض أسد الدين شيركوه على نور الدين محمود ما يراه بشأن مستقبله في الشام و تحديدًا في حلب، فقال له: «وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسى ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام»^(٣).

ومن هنا بات واضحًا في رأينا سبب رفض أسد الدين شيركوه عرض جمال الدين الأصفهاني، حيث وجد أن مستقبله ليس في الموصل، لأن السيطرة ستصبح هناك في أيدي

(١) هو سيف الدين غازي بن زنكي بن أقي سندر: حكم الموصل بعد مقتل والده في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وتولي جمال الدين الأصفهاني الوزارة له، وكان محبا للعلم وبنى بالموصل المدرسة العتيقة، وتوفي في عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ وهو في الأربعين من عمره. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣-٤؛ ج ٥، ص ١٤٤).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١١٩-١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

جمال الدين الأصفهاني، وعلى العكس من ذلك كان شيركوه يخطط - كما أظهرت رواية ابن أبي طي - لكى يقوم مع نور الدين محمود بنفس دور جمال الدين الأصفهاني مع سيف الدين غازى، لأنه وجد أن مساعدته لنور الدين محمود وتمكين أموره في الشام سيكون له أبلغ الأثر على علاقتهما في المستقبل.

ثم أوضح أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود الأسباب التى جعلته يفكر في حلب لتكون مقرا للملكة في الشام، وأظهر في ذلك تفهما كبيرا لأهمية موقع حلب فقال

له: «وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك، لأن ملك الشام يحصل «بحلب»^(١)، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق»^(٢).

وانتهى إلى هنا حديث أسد الدين شيركوه إلى نور الدين محمود، وكتب ابن أبي طي بعد ذلك ما يوضح موافقة نور الدين محمود على وجهة نظر شيركوه بشأن انتقاله إلى حلب، فقال: «فركب وأمر أن ينادى في الليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب»، ثم أوضح دور أسد الدين شيركوه في ولاية نور الدين محمود قلعة حلب فقال: «ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى إليها، وأصعد نور الدين إليها وقرر أمره ومشى أحواله»^(٣).

ثم ختم ابن أبي طي روايته عن هذا الموضوع بعبارة لخص فيها أثر الدور الذى قام به أسد الدين شيركوه مع نور الدين محمود في ولايته حلب، على العلاقة بينهما بعد ذلك

(١) ترجع أهمية موقع حلب إلى توسطها وقربها من العديد من المدن الكبيرة سواء في بلاد الشام، مثل: حمص، وحماة، ودمشق، وطرابلس، وأنطاكية، واللاذقية. أو في بلاد الجزيرة الفراتية. الواقعة بين نهري دجلة والفرات. مثل بلاد: حران، والرقعة. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٥، ٢٨٤، ج ٣، ص ٥٩).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

وذكر موقف كل منهما من هذا الدور...

فبالنسبة لموقف نور الدين محمود، أشار ابن أبي طي إلى أنه كان يحفظ لشيركوه هذا الجميل، فقال: «كان نور الدين يرى له ذلك»، أما بالنسبة لأسد الدين شيركوه، فمن الواضح أنه كان لا يكفيه هذا مقابل دوره معه، ولذا نجد ابن أبي طي يقول عن شيركوه أنه كان: «يَمَنّ (عليه) بأنه كان السبب في توليته»^(١). وهذه العبارة تعد إشارة مهمة إلى بداية فتور العلاقة بينهم، وسنرى في الصفحات القادمة من خلال كتابات ابن أبي طي التغييرات الأخرى التي ستطرأ على هذه العلاقة.

هكذا أوضح ابن أبي طي الدور الذي قام به أسد الدين شيركوه في ولاية نور الدين محمود حلب عقب مقتل والده زنكي في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد لاحظنا من خلال مقارنة كتابات ابن أبي طي مع كثير من المؤرخين انفراده بذكر تفاصيل هذا الدور بينهم، ولعل نشأة ابن أبي طي وإقامته في حلب، قد وفرت له العديد من المصادر التي استمد منها معلوماته في كتابة هذا الموضوع، والتي لم تتوفر لغيره من المؤرخين.

وفي رأينا كان ابن أبي طي مبالغاً في تعظيم هذا الدور، ولعل حماسه أثناء كتابته السيرة الصلاحية قد دفعه إلى هذه المبالغة في إظهار دور أسد الدين شيركوه باعتباره كان من أهم أفراد الأسرة الأيوبية الذين ساهموا بدور كبير في ولاية صلاح الدين مصر ثم تأسيسه الدولة الأيوبية، ومع ذلك فإن هذه المبالغة في أسلوب ابن أبي طي لا تقلل في رأينا من أهمية روايته، حيث ألقى فيها الضوء على العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه في تلك الفترة المبكرة من تاريخ العلاقات بينهما.

وقد ألمح إلى هذا الدور أيضاً أحد الشعراء المعاصرين لهذه الأحداث وهو «ابن منير الطرابلسي»^(٢)، وكان مقيماً بحلب، وكتب شعراً فأعجب به عماد الدين زنكي، فطلب منه

(١) المصدر نفسه والصفحة.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان : ولد في عام ٤٧٣ هـ /

أن يأتي إليه، وكان في ذلك الوقت محاصراً لقلعة جعبر، فوصل إليه ابن منير في نفس الليلة التي قتل فيها^(١)، وقال عن هذا الدور: «فأخذ أسد الدين شيركوه... نور الدين محمود بن زنكي وعسكر الشام وعاد بهم إلى حلب». ودخل ابن منير إلى حلب في صحبة هذه القوات^(٢). وأكدته أيضاً المؤرخ «أبو شامة» فقال: «وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك»^(٣).

وبعد استقرار ملك نور الدين محمود في حلب، خاض أسد الدين شيركوه معه العديد من المعارك على الصعيدين الصليبي والإسلامي، وفي خلال هذه الفترة طرأ على العلاقة بينهما بعض التغيرات، معظمها كانت لصالح أسد الدين شيركوه ومع هذا فلم تخل العلاقة بينهما من الفتور في بعض الأحيان.

معارك أسد الدين شيركوه مع إمارة إنطاكية الصليبية:

خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوات حلب بعد أسبوع واحد من وصولهم إليها في ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، حيث هاجمت قوات الأمير ريموند دي بواتيه Raymond de potier (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٣٠ - ٥٣١ - ٥٤٤)، المناطق القريبة من حلب، فتصدى أسد الدين شيركوه لهم، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذه المعركة وبدور شيركوه فيها، وهي تعتبر من أوائل المعارك التي خاضها في حلب، وتعد أيضاً بداية لتسجيل تاريخه العسكري بعد ولاية نور الدين محمود حلب.

قال ابن أبي طي: «فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجد في

١٠٨٠ م بطرابلس، وكان كثير الهجاء، وتوفي بحلب في عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٢ م. (ابن خلكان:

وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٥٦ - ١٦٠).

(١) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٠ - ١٢١.

السير، ففاته الفرنج وأدرك جماعة من الرّجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته؛ وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شنّ الغارة على بلد «أزنّاح»^(١)، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفرا^(٢).

فتور العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه:

بعد فترة وجيزة من ولاية نور الدين محمود حلب، سقطت مدينة «بعلبك» - والتي كانت تابعة للدولة الأتابكية منذ عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م - في أيدي قوات دمشق، حيث استغل الأمير «مجير الدين آبق» (٥٣٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٣٩ - ١١٥٤ م) أمير دمشق ظروف اضطراب الدولة الأتابكية بعد مقتل أتابك زنكى وقام بحصار بعلبك حصارا شديدا فاستسلم له واليها «نجم الدين أيوب»، فأبقاه مجير الدين آبق نائبا عنه في ولاية بعلبك^(٣).

وقد أثرت هذه العلاقة بين نجم الدين أيوب وأمير دمشق على العلاقة بين أسد الدين شيركوه و نور الدين محمود، وساهمت في فتور العلاقات بينهما، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذا التطور المهم في العلاقة، فقال: «ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يتفشد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى «مجد الدين أبو بكر بن الداية» حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين»^(٤).

وفي رأينا كان اتخاذ نور الدين محمود هذا الموقف أمرا طبيعيا بسبب حوفه على دولته التي لا تزال في خطواتها الأولى من اتحاد نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه مع أمير دمشق ضده، وخاب بذلك أمل شيركوه في أن يكون له مساحة كبيرة من السلطة السياسية في دولة نور الدين محمود، وظل يمارس دوره العسكري في جيش نور الدين

(١) أزنّاح: حصن منيع من أعمال حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٠).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

(٣) سنوضح هذا الموضوع عند تناولنا العلاقة بين نجم الدين أيوب و نور الدين محمود.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

محمود.

واستمر هذا الفتور قائما في العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود ثم بدأت تعود العلاقات بينهما إلى سابق عهدها، وقد ظهرت بوادر ذلك خلال إحدى المعارك التي خاضها أسد الدين شيركوه مع نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية، وتعرف بموقعة «يغرا» ووقعت أحداثها في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، وانتهت بهزيمة قوات نور الدين محمود، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذه المعركة، وبالحوار الذي دار بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه خلالها.

قال ابن أبي طي: «أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي واقعة «يغرا»؛ ومَرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد أنكسروا، فقال: يا «خوند»^(١) إيش ننفع نحن؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين {ذلك وطيب قلب أسد الدين}^(٢) بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه وأصلح بينهما»^(٣).

وكما رأينا فقد ظهر من رواية ابن أبي طي عن هذه المعركة، أن أسد الدين شيركوه لم يقم فيها بواجبه العسكري على أكمل وجه، وأرجع ذلك إلى ضيقه من تمييز نور الدين مجد الدين بن الداية عليه، وقد أضاف المؤرخ «رنسيان» سببا آخر من أسباب نفور أسد الدين شيركوه تجاه مجد الدين بن الداية، فذكر أنه وقع شجار بينهما أثناء تلك المعركة، ورفض

(١) خوند: لفظ أعجمي بمعنى السيادة، وقد غلب استعماله في العالم الإسلامي كلقب عام بمعنى السيد أو الأمير أو السيدة أو الأميرة. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٧٨؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٢٨٠).

(٢) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٥ (طبعة دار الجليل)، ص ١٤٤ (طبعة دار الكتب).

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ١٤٣ - ١٤٤ (طبعة دار الكتب).

شريكوه على أثره الاشتراك في القتال^(١) وهذا يفسر ما أورده ابن أبي طي في ختام روايته عن قيام نور الدين محمود بالإصلاح بين أسد الدين شريكوه ومجد الدين بن الداية.

ثم قام أسد الدين شريكوه في العام التالي بدور مهم في الانتصار الكبير الذي أحرزته قوات نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية الصليبية، حيث دارت بينهما معركة مهمة في عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م، وانتهت بمقتل أمير إنطاكية «ريموند دي بواتيه» على أيدي أسد الدين شريكوه، وساهم هذا الانتصار في ارتفاع مكانته لدى نور الدين محمود.

الدين محمود. وقد انفرد ابن أبي طي هنا أيضا بذكر دور شريكوه في هذه المعركة، فقال: «حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقتل البرنس صاحب إنطاكية وجماعة من وجوه عسكره... وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إن كان آل فرنج أدركوا «فلجاً»^(٢) في يوم يغراء، ونالوا منية الظفر
ففى الخطيم خطمت الكفر منصلتنا
أبا المظفر بالصمامة الذنر
نالوا ييغرا نهاباً، وانتبهت لنا
على الخطيم نفوس المعشر {الأشر}!^(٣)
واستقودوا الخيل عرياً واستقدت لنا
قوامص الكفر في ذل وفي صـ

ثم قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً، وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين^(٤).

وقد كانت هذه الموقعة آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن معارك نور الدين محمود مع إمارة إنطاكية الصليبية، وقد شارك أسد الدين شريكوه في معظم معارك نور

(١) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٢٤.

(٢) الفلج: الظفر والفوز. (الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٣٥).

(٣) في طبعة «دار الجليل». «البر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٥٨).

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ١٥١ (طبعة دار الكتب).

الدين الأخرى التى خاضها مع البلاد الإسلامية و الصليبية.

دور شيركوه فى سيطرة نور الدين محمود على دمشق:

ساهم أسد الدين شيركوه بدور كبير فى سيطرة نور الدين محمود على دمشق فى عام ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ م، ففضلا عن دوره العسكرى كقائد كبير فى جيشه، فقد أظهرت كتابات «ابن القلانسي» ومن بعده «ابن أبى طي» أن علاقته بنور الدين محمود بلغت درجة كبيرة من الثقة إلى حد أن بدأ يوفده رسولا من جهته، وفى هذا العام أرسله إلى «مجير الدين أبى» أمير دمشق، فصار إليه فى موكب كبير فى ألف فارس^(١)، وهذه القوة تعادل الجيش الذى خرج به أسد الدين شيركوه إلى مصر لإعادة الوزير شاور إلى منصبه فى الوزارة فى عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م كما سبق أن ذكرنا، وهذا خشى مجير الدين من وصول شيركوه بهذا العدد الكبير، ورفض استقباله، فاتخذ أسد الدين شيركوه بالاتفاق مع نور الدين محمود من هذا ذريعة لإعلان الحرب على دمشق.

قال ابن أبى طي عن هذا الدور: «أنفذ نور الدين {أسد الدين}^(٢) شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق، فخرج فى تجميل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة؛ ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق. فاستوحش أسد الدين... وأغلظ لصاحب دمشق فى المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه، فسار نور الدين فى عساكره، وزحف إلى البلد»^(٣).

ثم انفرد ابن أبى طي بذكر دور أسد الدين شيركوه العسكرى فى هذه المعركة والامتيازات التى منحها له نور الدين محمود بعد ملكه دمشق، فقال: «وتولى أسد الدين

(١) المصدر السابق، ص ٥٠٣.

(٢) ماقطة من طبعة «دار الكتب». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٣٩) طبعة دار الكتب

(ج ١، ص ٩٦) طبعة دار الجليل.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٢٣٩) طبعة دار الكتب.

القتال، وأبلى الجهد... وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها فوله نور الدين أمرها، ورد إليه جميع أحوها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين «الرجبة»^(١).

ثم عرض ابن أبي طي فيما وصلنا من كتاباته إحدى معارك أسد الدين شيركوه مع الصليبيين، ووقعت أحداثها في عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م بعد سيطرة نور الدين محمود على مدينة بانياس. وكان نور الدين محمود قد أرسل ما غنمه من البلد والأسرى معه إلى دمشق، فهاجمته قوة صليبية، فتمكن شيركوه من هزيمتها. وقد انفرد ابن أبي طي بهذه المعركة فقال: «أنفذ (نور الدين) الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس. واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها، واتصل هذا بأسد الدين، وقد دهمته الفرنج، فلبس لامته، وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر؛ وغنم منهم غنيمة حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافرا وتوجه في وجهته مؤيدا»^(٢).

علو شأن أسد الدين شيركوه في عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م:

في خلال هذا العام علا شأن أسد الدين شيركوه في دولة نور الدين محمود، وأظهرت الأحداث التي أعقبت تعرض نور الدين محمود لمرض شديد في هذا العام المكانة التي وصل إليها أسد الدين شيركوه في ذلك الوقت، وكان نور الدين محمود عند اشتداد المرض

(١) الرجبة: وتعرف برجبة مالك بن طوق: تقع بين الرقة وبغداد علي شاطئ نهر الفرات، وذكر «ياقوت» أن أسد الدين شيركوه كان قد أناب فيها «يوسف بن الملاح الحلبي»، فأساء السيرة فيها، فأرسل إليه «يحيى بن النقاش الرحبي» أبياتا من الشعر توضح ما يعانيه من سوء حكمه (معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٤-٣٦).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

عليه قد جمع كبار الأمراء في دولته، ووضع بين أيديهم وصيته، فأوصى بولاية انعهد من بعده لأخيه الأصغر «نصرة الدين أمير أميران» وقد حظى أسد الدين شركوه بنصيب كبير من وصيته، فأوضح «ابن القلانسي» أنه أوصى بأن يكون نائباً عن أخيه نصرة الدين في ولاية دمشق^(١)، كما أشار ابن أبي طي إلى أنه عهد إليه بقيادة قواته، فقال: «فأحضر شركوه وأوصاه بالعساكر»^(٢).

وعلى أثر اشتداد المرض على نور الدين محمود نقله كبار أمرائه إلى حلب في القلعة بها، وانتقل أسد الدين شركوه إلى دمشق، وقد برر «ابن القلانسي» ذهابه إليها بقصد حمايتها من هجمات الصليبيين أو من غيرهم^(٣)، واتفق معه ابن أبي طي في ذلك فقال: «فسار أسد الدين إلى دمشق وأقام «بمرج الصفر»^(٤) خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها؛ ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهتثاً له بالعافية»^(٥).

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن بعض المؤرخين وفي مقدمتهم «ابن الأثير» قد أساءوا فهم موقف أسد الدين شركوه من ذهابه إلى دمشق، ونسبوا إليه أنه كان ظامعاً في الاستيلاء على دمشق^(٦).

وفي صفر عام ٥٥٤ هـ / ١١٤٩ م أوفد نور الدين محمود أسد الدين شركوه رسولاً إلى الموصل، حيث كان قد أصيب بالمرض مرة ثانية في ذى الحجة عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م،

(١) المصدر السابق، ص ٥٣٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٧٦؛ عيون الروضتين، ق ١، ص ٢٤٦.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٣٣-٥٣٤.

(٤) مَرْجُ الصَّفَر: مكان بدمشق. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١).

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٢٧٦؛ عيون الروضتين، ق ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٦) الكامل، ج ٩، ص ٦٧. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٩؛ ابن واصل:

المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠-١٣١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٥؛ ابن الوردي:

المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٠.

وقد أوضح «ابن القلانسي» أنه عهد في هذه المرة إلى أخيه «قطب الدين مودود بن زنكي» (٥٤٤ - ٥٦٥ هـ / ١١٤٩ - ١١٧٠ م) أمير الموصل بولاية الدولة من بعده، فأوفد لذلك قطب الدين مودود وزيره «جمال الدين الأصفهاني» رسولا إلى نور الدين محمود، فاجتمع معه ثم عاد إلى الموصل، وأوفد معه نور الدين محمود أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين مودود^(١).

واتفق ابن أبي طي في عرضه لهذا الموضوع مع ما ذكره ابن القلانسي، فقال: «لما وصل الوزير «جمال الدين» إلى حلب تلقاه موكب نور الدين... وأكرم غاية الإكرام؛ وأعيد إلى صاحبه شاكرا عن نور الدين، وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين بالشكر والثناء عليه؛ وأنفذت معه هدايا سنية»^(٢).

غارة أسد الدين شيركوه على صيدا:

بعد عودة أسد الدين شيركوه من الموصل في عام ٥٥٤ هـ / ١١٤٩ م، أرسله نور الدين محمود للإغارة على صيدا، وقد أشار ابن القلانسي إلى هذه الغارة وذكرها ضمن أحداث ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م^(٣)، وعرض أيضا ابن أبي طي المعركة واتفق مع ابن القلانسي في نتائجها، فقال: «فسار (شيركوه) وعاد إلى حلب مكرما..... ثم انهض (نور الدين) أسد الدين في قطعة من العسكر للإغارة على بلد صيدا؛ ففسار..... ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالما عظيما، وغنم غنيمة جليلة؛ و{عاد}^(٤)، فاجتمع بنور الدين على «جسر الخشب»^(٥)»^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ٥٤٢ - ٥٤٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٣٧.

(٤) في طبعة «دار الجليل». «علا». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٢٣).

(٥) جسر الخشب: ويعرف أيضا بمنازل العسكر. (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٧٩).

(٦) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٣٠٦.

أداء أسد الدين شيركوه فريضة الحج:

قام أسد الدين شيركوه بأداء فريضة الحج في عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، وقد أثنى ابن الجوزى على ما قام به من أعمال الخير هناك، فقال: «وبث في الحرمين معروفا كثيرا ولم يفعل «كوجك»^(١) شيئا يذكر به على كثرة ماله»^(٢).

وقد أورد ابن أبى طى أيضا هذا الخبر، ولكنه اختلف مع ابن الجوزى في توقيت سفره، وأورده ضمن أحداث عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م، كما انفرد ابن أبى طى بذكر تفاصيل أخرى عنه أثناء الحج، وعن اهتمام نور الدين محمود باستقباله عند عودته. فقال: «في هذه السنة حج أسد الدين من الشام وخرج في تجميل عظيم وشارة رائقة؛ واستصحب معه من الأزواد والكسب أشياء عظيمة. ويقال أنه كان معه ألف نفس يجرى عليهم الطعام والشراب. وحج «على كوجك المعروف بزين الدين» من العراق؛ وحج «ملهم» أخو «ضرغام» وزير مصر فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز. وعاد أسد الدين شيركوه سنا وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوما عظيما»^(٣).

العلاقة بين نور الدين محمود ونجم الدين أيوب وأولاده في الشام:

بدأت العلاقة بين الدولة الأتابكية والأسرة الأيوبية بين عماد الدين زنكى ونجم

(١) هو زين الدين علي كوجك: تركماني الأصل، وعرف بكجك لقصر قامته، وهو لفظ أعجمي، يعني في اللغة العربية «صغير». ملك مدينة «إربل» وبلاد أخرى غيرها، وفرقها جميعا علي أولاد «قطب الدين مودود بن زنكي» أمير الموصل، ولم يبق له سوي إربل. وعاش عمرا طويلا ويقال أنه جاوز المائة، وأصابه العمى في آخر أيامه، وتوفي في إربل عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٨ م. (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١١٤).

(٢) المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٩٦.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٣١١.

الدين أيوب منذ عام ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وقد حظى نجم الدين أيوب وأسرته - كما سبق أن أوضحنا - منذ ذلك الوقت باهتمام ورعاية زنكى، وعهد إليه بولاية بعلبك نيابة عنه منذ أن ملكها في عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م، وظل نجم الدين أيوب واليا عليها حتى قُتل زنكى في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، وقد أحدثت وفاة زنكى المفاجئة اضطرابا في دولته، وشجع هذا أمير دمشق «بجير الدين أبى» (٥٣٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٣٩ - ١١٥٤ م) على إعادة بعلبك مرة أخرى إلى سيطرة دمشق، فأقام حولها حصارا شديدا، وتمكنت قواته من ملكها، وقد عرض ابن أبي طي موقف نجم الدين أيوب من هذا الحصار فقال: «اشتد صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر..... فاشتد الأمر فطلبوا الأمان والمصالحة»^(١).

- وصارت بعلبك منذ ذلك الوقت تتبع دمشق، وفيما يتعلق بأحوال نجم الدين أيوب بعد ذلك، فقد أكد ابن الأثير أنه انتقل للإقامة في دمشق، بعد أن منحه أميرها مالا وإقطاعا يضم عشرة قرى بها^(٢)، ولقد اختلف ابن أبي طي مع ابن الأثير في ذلك، وأكد بقاء نجم الدين في بعلبك واليا عليها من قبل أمير دمشق فقال: «فاستخلف صاحب دمشق نجم الدين، وأقر له الثلث الذى كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها»^(٣).

و أكد ابن أبي طي بقاء نجم الدين أيوب في بعلبك في كثير من كتاباته الأخرى عن تاريخ نجم الدين أيوب، وسوف نلاحظ ذلك من خلال عرضنا لهذه الكتابات في الصفحات القادمة، كما ذكر «ابن القلانسي» أثناء عرضه لأحداث الغارة الصليبية على البقاع في عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م، تصدى والى بعلبك لهذه الغارة، وأكد «أبو شامة» بعد

(١) عرضنا رواية ابن أبي طي عن هذا الحصار في الفصل الخاص بتاريخ الدولة الأتابكية.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

(٣) الكامل، ج ٩، ص ١٦. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١١٠؛ أبو الفداء.

المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

ذكره لنص ابن القلانسي، أن هذا الوالي كان نجم الدين أيوب^(١).

وقد أكد رأى ابن أبي طي بعض المؤرخين اللاحقين به أثناء ذكرهم لحوادث أخرى، فقال ابن العبري في أحداث عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م: «فيه خرج صلاح الدين من عند نجم الدين أيوب أبيه وهو في بعلبك»، كما ذكر ابن قاضي شهبه في أحداث عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م: «فيها تسلم نور الدين محمود بعلبك وكانت بيد نجم الدين أيوب»^(٢).

ولقد كان لخروج بعلبك من أملاك الدولة الأتابكية في الشام، ودخولها هي وواليتها نجم الدين أيوب في سلطنة دمشق، أثرا كبيرا على العلاقة بين نجم الدين و نور الدين محمود، فأوضح ابن أبي طي أن نور الدين داخله الخوف من علاقة نجم الدين أيوب مع أمير دمشق، وزاد خوفه من اتحاد أسد الدين شيركوه معهم في العمل عليه، ولهذا قرر إبعاد شيركوه عن شئونه السيامية كما ذكرنا من قبل. فقال: «ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده»^(٣).

وظلت بعلبك تتبع سلطنة دمشق منذ عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م حتى عودتها مرة أخرى إلى تبعية الدولة الأتابكية في عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م، وطوال هذه الفترة لم يصل إلينا من كتابات ابن أبي طي ما يوضح طبيعة العلاقة بين نجم الدين أيوب و نور الدين محمود ونستطيع أن نقول من خلال بعض الإشارات التي وردت في كتاباته أنه إذا كان نجم

الدين أيوب لم تقم بينه وبين نور الدين محمود علاقات مباشرة بحكم علاقته مع دمشق، إلا أن هذا لم يمنع أولاده من الالتحاق بجيش نور الدين محمود خلال تلك الفترة. فأشار ابن أبي طي أثناء عرضه لأحداث معركة «يغرا» بين نور الدين محمود وإمارة إنطاكية

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٤٩٢؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٠٩.

(٢) ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٦٧؛ ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية، أحداث عام ٥٥٠ هـ.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، إلى مشاركة «شاهنشاه بن نجم الدين»^(١) فيها، فقال: «وقُتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب، أخو الملك الناصر، وقيل: في كسرة «البقيعة»^(٢)»^(٣).

كذلك انضم «يوسف بن نجم الدين أيوب» - والملقب بعد ذلك بالملك الناصر صلاح الدين - إلى قوات نور الدين محمود في حلب في عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر هذه الرواية التي تعد إضافة مهمة توضح بداية ظهور اسم صلاح الدين على مسرح الأحداث، ومن ناحية أخرى توضح بداية علاقته بالملك العادل نور الدين محمود فقال: «وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده، وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعته إقطاعاً حسناً»^(٤)»^(٥).

أما بالنسبة لأحوال نجم الدين أيوب أثناء ولايته بعلبك، فقد أوضح ابن أبي طي إحدى المعارك التي تلقى الضوء على دوره في حماية بعلبك، وتصديه لهجمات الصليبيين على البقاع في عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م، وقد ذكر ابن القلانسي تفاصيل هذه المعركة والظروف التي مهدت لها^(٦)، واتفق معه ابن أبي طي اتفاقاً كبيراً، مما يؤكد أن كتابات ابن القلانسي

(١) الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين بن شاذي: أكبر أبناء نجم الدين أيوب، قتل في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م في إحدى المعارك مع الصليبيين على أبواب دمشق، وواصل ولداه عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر، العمل في جيش نور الدين محمود، ومن بعده مع صلاح الدين. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ١، ص ١٤٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٢؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٧٨).

(٢) هزم فيها نور الدين محمود عند حصن الأكراد في عام ٥٥٨ هـ. (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٩) (رواية العماد الأصفهاني).

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٤٤؛ ابن قاضي شهبه: المصدر السابق، ورقة ٩٣؛ التميمي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٨.

(٤) اتفق ابن العبري مع رواية ابن أبي طي عن بداية التحاق صلاح الدين بخدمة نور الدين محمود، وذكر نفس معاني روايته بأسلوب مختلف. (تاريخ الزمان، ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر. (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٩١ - ٤٩٢).

كانت إحدى مصادره التى اعتمد عليها فى هذه المعركة، وانفرد ابن أبى طى بذكر دور «تورنشا بن نجم الدين أيوب» فيها.

قال ابن أبى طى عن هذه المعركة: «فى سنة ست و أربعين أغار التركمان على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفرنج، واستنقذوا ما أخذوه؛ فعاد التركمان عليهم فكسروهم. و اتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان «الهدنة»^(١) المنعقدة بينه و بين الفرنج؛ فأنفذ عسكريا إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيئوا وخرجوا فى جيش عظيم، و شنوا الغارة على البقاع و الناس غافلون؛ فامتلات أيديهم من الغنائم و الأسارى. و اتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو فى بعلبك وعنده جماعة من عسكري دمشق و أصحابه، فقدم عليهم ولده شمس الدولة، فخرج و أوقع بالفرنج. و اتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم، و جاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، و خلص من كان عند الفرنج من الأسارى»^(٢).

سيطرة نور الدين محمود على بعلبك:

عادت بعلبك مرة أخرى إلى سيادة الدولة الأتابكية فى الشام، وكان ذلك - كما أوضح

(١) كان بين معين الدين إرنا - والذي كان بيده الحكم الفعلي فى دمشق - وملكة بيت المقدس الصليبية معاهدات تحالف. ففي عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م وبسبب حصار عماد الدين زنكي دمشق، عقدت معاهدة بين معين الدين إرنا و الملك «فولك الأنجوي» (١١٣١ - ١١٤٣ م / ٢٦ / ٥٢٧ - ٥٣٨ هـ) وتقرر فيها أن يقوم إرنا بدفع عشرين ألف قطعة من الذهب نفقة الحملة الصليبية لمساعدته على فك الحصار، كما تعهد أيضا بالمساعدة لإعادة بانياس مرة ثانية إلى الحكم الصليبي، ثم عقدت هدنة ثانية فى المحرم ٥٤٤ هـ / مايو ١١٤٩ م لمدة ستين، وهذه الهدنة التى ألح إليها ابن أبى طي فى النص. (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٢٦، ٤٧٢؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٤١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٤٦٧ - ٤٦٨).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

«ابن القلانسي» - فى عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م^(١)، وقد اتفق ابن أبى طى معه فى هذا التاريخ^(٢)، ولكن «ابن الأثير» أورد تاريخاً آخر مخالفاً لهما، وذكر أنه ملكها فى عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م^(٣).

وقد أورد ابن أبى طى روايتين فى ملك نور الدين محمود بعلبك، أوضح فى الأولى أنه كان لنجم الدين أيوب دوراً فى ملكه إياها، وانفرد بذكر ذلك، فقال: «لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين فى تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلمها منه، وألحقه بأصحابه»^(٤).

أما الرواية الثانية فقد ناقشناها فى فصل سابق^(٥)، وفيها أوضح ابن أبى طى أن نجم الدين أيوب لم يعد حاكماً للقلعة فى بعلبك، وولى أمير دمشق آخر أمرها، فتسلمها منه نور الدين محمود، فقال: «ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن «مجير الدين» صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله فى البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له «ضحاك». فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكاً»^(٦).

وقد شهدت العلاقة بين نجم الدين أيوب وأولاده و الملك العادل نور الدين محمود تطوراً كبيراً بعد عودة بعلبك إلى سيادة الدولة الأتابكية، وقام أسد الدين شيركوه بدور كبير فى تحول العلاقة بينهما لتأخذ شكلاً أكثر ودياً، فولاهم نور الدين محمود العديد من الوظائف فى دمشق.

(١) المصدر السابق، ص ٥٠٩.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠ (رأى ابن أبى طى).

(٣) الكامل، ج ٩، ص ٥٧. وانظر أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

(٥) وهو الفصل الخاص بكتابات ابن أبى طى عن تاريخ الدولة الأتابكية.

(٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

وقد انفرد ابن أبي طي بذكر ذلك، فقال عن علاقة نجم الدين أيوب مع نور الدين محمود: «وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد «نظر»^(١) دمشق إليه»^(٢).

أما بالنسبة لأولاد نجم الدين أيوب، فقد ولي نور الدين محمود «تورانشاه» الشرطة في دمشق، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر ذلك، فقال: «وولي ولده تورانشاه شحنة دمشق فساسها أحسن سياسة»^(٣). وقد أكد «أبو شامة» ولايته لها وأورد بعض أبيات من الشعر التي قيلت في مدحه أثناء فترة عمله في شرطة دمشق^(٤).

ثم قال ابن أبي طي: «ولم يزل (تورانشاه) بها إلى أن توفي»^(٥). ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن ابن أبي طي لم يكن دقيقاً فيما ذكره عن توقيت وفاة تورانشاه حيث كانت وفاته في عام ٥٧٦ هـ / ٨٠ - ١١٨١ م^(٦)، وأشار أيضاً «أبو شامة» إلى هذا الخطأ^(٧). وقد نفى ابن أبي طي بعد ذلك ما ذكره هنا عن توقيت وفاة تورانشاه، بعرضه لكثير من الأحداث التي شارك فيها تورانشاه بعد ذلك، ومن بينها أحداث سيطرته على بلاد النوبة في عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م^(٨).

وحظي أيضاً «يوسف بن نجم الدين أيوب» الملقب بعد ذلك بصلاح الدين باهتمام

(١) الناظر: هو الموظف المعنى بالأموال المالية، وهو مأخوذ إما من النظر الذي هو رأي العين لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه، وإما من النظر بمعني الفكر، لأنه يفكر فيما فيه المصلحة من ذلك. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٥؛ بدري محمد فهد: تاريخ العراق، ص ١٢٧).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥٢.

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٨) ستناول هذه الأحداث في الفصل القادم.

نور الدين محمود، فذكر «العماد الأصفهاني» أنه ولاه الشرطة في دمشق^(١)، واتفق معه ابن أبي طي فقال: «فولى صلاح الدين شحنة دمشق»^(٢)، وانفرد ابن أبي طي بذكر عمله بعد ذلك مع «أبي سالم بن همام»^(٣) «صاحب الديوان»^(٤) في دمشق. وكان ابن القلانسي قد أوضح أن أبا سالم هذا ساءت سيرته في الديوان، فحُقق معه وقبض عليه، وصدر أمر نور الدين محمود باعتقاله، فاتبعت معه المراسم التي تشير إلى إدانته، فحلقت لحيته وطيف به في أسواق دمشق^(٥).

وقد اتفق ابن أبي طي مع ابن القلانسي في روايته عن أبي سالم بن همام، وأضاف بعض التفاصيل الأخرى التي توضح سوء العلاقة بين صلاح الدين و أبي سالم بن همام أثناء فترة عمله معه في الديوان، الأمر الذي أدى لمغادرة صلاح الدين الديوان، ولعله كشف قبل تركه مساوئ أبي سالم، ولهذا ذكر ابن أبي طي معاقبة نور الدين محمود له بعد رحيل صلاح الدين فقال: «(فولى صلاح الدين) الديوان فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب، لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان {أبي سالم بن همام}^(٦)»، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته وطيف به في دمشق^(٧).

ثم توطدت العلاقة بعد ذلك بين نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن أيوب،

(١) سنا البرق، ص ١٠٧.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠.

(٣) أبو سالم بن همام الحلبي: ولاه أسد الدين شيركوه - نائب نور الدين محمود في دمشق - مشاركة الديوان بدمشق، فساءت سيرته، فأصدر نور الدين أوامره بالقبض عليه في شوال عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م، ثم نفى إلى حلب. (ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٥١٦).

(٤) صاحب الديوان: وهو ثاني رتبة «الناظر» في المراجعة، وله أمور تخصه كترتيب الدرج ونحو ذلك. (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٦).

(٥) المصدر السابق، ص ٥١٦.

(٦) في طبعة «دار الجليل»: «أبي سالم همام» (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٠٠).

(٧) المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٢٥٠ (طبعة دار الكتب).

فذكر العماد الأصفهاني أن نور الدين محمود كان مولعا باللعب بالكرة، وكان صلاح الدين يشاركه اللعب^(١)، واتفق ابن أبي طي مع العماد في ذلك، و أضاف بعض التفاصيل الأخرى عن العلاقة بينهما، فقال: «و استخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يجب لعب الكرة»^(٢).

ولم يقتصر عمل نجم الدين أيوب في الدولة الأتابكية على توليه نظر دمشق، بل كان يشارك أيضا هو وأولاده أخيه أسد الدين شيركوه في غاراته على البلاد الصليبية، ومن ذلك مشاركتهم في الإغارة على صيدا في عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م، وقد انفرد ابن أبي طي بذكر اشتراكهم في هذه الغارة، فقال: «ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم انهض أسد الدين في قطعة من العسكر للإغارة على بلد «صيدا»؛ فسار وسار ومعه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده»^(٣).

وقد كان اشتراك نجم الدين أيوب وأولاده مع أخيه أسد الدين شيركوه في هذه الغارة آخر ما وصلنا من كتابات ابن أبي طي التي توضح الأحداث التي شاركت فيها الأسرة الأيوبية في بلاد الشام في عهد نور الدين محمود، وأوضحت كتاباته بعد ذلك الأحداث

التي شاركت فيها الأسرة خارج حدود بلاد الشام، وتحديدًا في مصر، حيث شاركت في أحداث حملات نور الدين الثلاث على مصر، وكانت هذه الأحداث أولى الخطوات التي كان لها أبلغ الأثر في تمهيد الطريق أمام ولاية الأسرة الحكم في مصر.

(١) سنا البرق، ص ٢٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٢ (رواية العماد).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية في مصر:

أولاً: علاقة نور الدين محمود مع أسد الدين شيركوه:

كان أسد الدين شيركوه قد بلغ مكانة عسكرية كبيرة في دولة نور الدين محمود، ولهذا عندما سنحت لنور الدين محمود في عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م الفرصة لاستطلاع أحوال مصر من خلال إرسال حملة عسكرية لإعادة الوزير الفاطمي «شاور السعدي» إلى منصبه في الوزارة، لم يجد أفضل من أسد الدين شيركوه لقيادة هذه الحملة، فكتب ابن أبي طي عن ذلك قائلاً: «وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيته، لأنه لم يرسله في أمر إلا نجح ولم يولج في مضيق إلا انفتح»^(١).

وقد نجح شيركوه في تنفيذ ما أسند إليه، ثم عاد إلى الشام، وقام بإطلاع نور الدين محمود على نتائج هذه الحملة، وقال ابن أبي طي عن هذه النتائج: «ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغبه فيها وشوقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال»^(٢).

ولهذا أرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه على رأس حملة ثانية لغزو مصر في عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م، وقد تحركت الحملة في كثير من أنحاء مصر من الصعيد جنوباً إلى الإسكندرية شمالاً، ثم غادرت مصر بعد أن تقصت أحوالها وعلمت مواطن ضعفها ومدى ثرائها، وأبلغ شيركوه نور الدين محمود بهذا بعد عودته إلى الشام. قال ابن أبي طي في شرح ذلك: «وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوى منها، لأنه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمراً عظيماً، فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطعه

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

«حصن» وأعمالها^(١).

وفي عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م كتب الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) إلى نور الدين محمود مستغيثاً به من الحملة الصليبية التي هاجمت مصر في بداية عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، فأرسل نور الدين محمود حملة ثالثة

إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، وقد أورد ابن أبي طي تفاصيل المراسلات التي دارت بين العاضد لدين الله و نور الدين محمود، فقال: «ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلييس من القتل والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم

ظهراً، أشفق من ذلك، وطلب الإذن على العاضد؛ فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أن البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى و تطلب نصرته ومعونته، فكتب جميع ذلك.... فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلته، وبرسالة سرية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عينها^(٢).

وقد فسر ابن الأثير هذا الاتفاق، فذكر أنه تقرر فيه أن يكون للملك العادل نور الدين محمود ثلث دخل مصر، وأن يظل أسد الدين شيركوه مقيماً فيها، مع منح قواته عدة إقطاعات داخل مصر^(٣)، وعلى هذا الأساس أرسل نور الدين محمود حملته الثالثة إلى مصر لتحقيق الأهداف المرجوة منها، ولتحصل على ما تقرر لها من امتيازات مادية وعسكرية في مصر.

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٠.

وقد وصلت حملة أسد الدين شيركوه إلى مصر في الوقت الذي أوشكت فيه الحملة الصليبية على الرحيل، ولهذا اعتبر نور الدين محمود بقاء حملته في مصر بعد خروج الحملة الصليبية فتحاً لها، لما سيمتتع به حسب اتفاقه مع العاضد من نفوذ داخل مصر، ولهذا أمر - كما أوضح «العماد الأصفهاني» - بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك^(١). وقد أكد هذا أيضاً ابن أبي طي في روايته فقال: «ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية، فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده؛ وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده؛ وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عدة أشعار»^(٢).

هكذا كانت العلاقة بين أسد الدين شيركوه ونور الدين محمود خلال الحملات الثلاث التي أرسلها بقيادته إلى مصر، وحتى ذلك الحين كانت العلاقات بينهما طيبة، ولم تخرج عن نطاق العلاقة بين الحاكم وقائد قواته الذي ينفذ ما يسند إليه من مهام. ثم حدث بعد ذلك تغيير كبير في العلاقات بينهما بعد وصول الحملة الثالثة إلى مصر، وقد أظهرت

كتابات ابن أبي طي هذا التغيير الذي حدث بعد عشرة أيام من دخول الحملة القاهرة.

وكان أسد الدين شيركوه قد دخل مدينة القاهرة في السابع من ربيع الآخر في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، ثم قام اثنين من كبار قواده بقتل الوزير الفاطمي شاور السعدي في السابع عشر من ربيع الآخر^(٣)، وطبقاً للتقاليد الفاطمية المتبعة منذ أن ضعفت الدولة الفاطمية^(٤) أسند الخليفة العاضد لدين الله الوزارة في مصر إلى شيركوه باعتباره كان

(١) المصدر السابق، ص ٤٠. وانظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٧٤.

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٧.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠٠-١٠١؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٦، ٤٠؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧-١٣٨.

صاحب أكبر قوة عسكرية في مصر في ذلك الوقت^(١)، وبذلك أصبح أسد الدين شيركوه هو الحاكم الفعلي لمصر، وبمعنى آخر صار الحكم في مصر للأسرة الأيوبية.

وقد أوضحت كتابات ابن أبي طي أن نور الدين محمود قابل خبر تولى أسد الدين شيركوه السلطة في مصر باستياء شديد، وانفرد بذلك بذكر هذا التحول الكبير في العلاقة بينهما، في آخر ما وصلنا من كتاباته عن تاريخ العلاقات بينهما. وقد اعتمد ابن أبي طي في جمع كتابته عن هذا الموضوع على عدة روايات شفوية حدثه بها جماعة عن أحد أهم الأشخاص المقربين من نور الدين محمود، وهو «مجد الدين بن الداية»، كذلك اعتمد على أي الفقيه الحلبي «الموفق محمود بن النحاس»، كما أورد ابن أبي طي جزءاً من كتاب أرسله نور الدين محمود إلى الخليفة العاضد، وفيه ألح نور الدين إلى حاجة دولته في الشام إلى جهود أسد الدين شيركوه، وقد فسر ابن أبي طي إرسال نور الدين هذا الكتاب بأنه كان يريد إخراج شيركوه من مصر.

قال ابن أبي طي: «غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزير للعاضد، واستبد بالأمر في ذلك الصقع «أمضه»^(٢) ذلك وأقلقه»^(٣)، وظهرت في «مخايل»^(٤) قسماته وفتلات كلماته الكراهة، وأخذ في الفكرة في أمره و«سهر له ليالي»^(٥) وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية. ثم قال: حدثني جماعة عن شمس الدين علي ابن الداية، أخى مجد الدين، وحدثني «الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبي»

وقد جرى ذكر فتج مصر وأن نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به لقد كان

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١.

(٢) أمضه: أي الجرح أو جعه، والمضض وجع المصيبة (الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٥١).

(٣) أنفق ابن كثير مع ما ذكره ابن أبي طي في هذا الجزء. (البداية، ج ١٢، ص ٧٧٤).

(٤) مخايل: ذى نخيلة أي ذو كبر. (الرازي: مختار الصحاح، ص ٢١٥).

(٥) في طبعة «دار الجليل»: «وسهره ليالي» (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٢).

ودّه أن لا يفتح، وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين^(١) إلى ما صاروا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين^(٢)، فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه؛ واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فضله محسوباً، لما صبر على ما جرى، ولا «أغضى» الملك العادل على «القدي»^(٣). ولقد كاتب العاضد عدة دفعات في أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح^(٤) وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال. فمن بعض مكاتباته: «و لقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوذ عسكره يُمن نقيته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب و«يُضمي»^(٥) «مقل»^(٦) الشرك بسهمه النافذ الصائب»^(٧).

وفي حقيقة الأمر فقد كانت كتابات ابن أبي طي عن هذا التحول في العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، والذي سيستمر من بعده مع صلاح الدين سبباً في توجيه الكثير من اللوم عليه، واتهمه لذلك المؤرخون بأنه لم يكن يؤرخ لتلك الأحداث بموضوعية، وأنه كان يضمّر شيئاً من التحامل على نور الدين محمود، ذلك لأن ابن أبي

(١) سنوضح كتابات ابن أبي طي عن العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين بعد عرض كتاباته عن العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه.

(٢) أورد المقرئ ملخصاً لرواية ابن أبي طي في هذا الجزء. انظر: (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٠٤).

(٣) أغضى علي القدي: يقال فلان يُغضى علي القدي إذا سكت علي الذل والضميم وفساد القلب. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١١، ص ٧٨).

(٤) ذكر المقرئ ما أورده ابن أبي طي عن مكاتبات نور الدين للخليفة العاضد. (اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٠٤).

(٥) يُضمي: أضْمَيْتَ الصيد إذا رميته فقتلته. وأضْمَيْتِ الرمية: أنفذتها. (ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٤١٥).

(٦) المُقْلَة: العين. (المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٥٦).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٧.

طى كان شيعي المذهب^(١)، وكان نور الدين محمود قد قام بمنع شعائر الشيعة في حلب

منذ عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م^(٢)، ونفى زعماءهم وفي مقدمتهم والد ابن أبي طي^(٣).

ولهذا فسوف نهتم في هذا البحث بالتحقق من مدى موضوعية ابن أبي طي تجاه ما كتبه عن العلاقة بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه، ومن بعده مع صلاح الدين وذلك من خلال مقارنة ما أورده من آراء مع كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث وأيضاً المعاصرين لابن أبي طي، ومن أبرزهم: العماد الأصفهاني وابن الأثير وابن شداد. ومن بالجدير بالذكر أن نشير إلى أن هؤلاء المؤرخين لم يتناولوا في كتاباتهم بعض جوانب العلاقة بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية، في حين اهتم ابن أبي طي بذكر معظم هذه الجوانب وأنفرد بذكر كثير من الآراء التي أخذت عليه، وهذا مما زاد من صعوبة التحقيق.

ومن هذه الآراء التي انفرد بها، روايته عن استيلاء نور الدين محمود من ولاية أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر، وفي اعتقادنا أن ما ذكره ابن أبي طي أمراً بالغ الأهمية، لأنه إذا سلمنا بصحة روايته، فتعد تسجيلاً لبداية الخلاف بين نور الدين محمود والأسرة الأيوبية بعد توليها الحكم في مصر، لأنه إذا كان هذا موقف نور الدين من ولاية شيركوه الذي كان يرتبط معه بعلاقة قوية دامت لأكثر من ربع قرن، أظهر فيها شيركوه تميزاً في خبرته العسكرية الطويلة، فما بالنّا بعلاقة نور الدين محمود بعد ذلك مع صلاح الدين بعد ولايته الوزارة عقب وفاة عمه شيركوه، والذي كان شاباً ولا مجال للمقارنة مع عمه، سواء في علاقته مع نور الدين أو في خبرته العسكرية، ولهذا سجلت كتابات كثير من المؤرخين ما يوضح سوء العلاقة بينهما الذي وصل إلى الحد الذي قرر فيه نور الدين محمود غزو مصر في

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١؛ هاملتون: صلاح الدين، ص ٧١.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٤٦٨؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١؛ الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص

٢٣٥؛ نظير سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص ٣، ٥.

عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، ولكنه توفي قبل أن ينفذ ما عزم عليه^(١).

ومن ناحية أخرى إذا حاولنا التحقق من مدى صحة رواية ابن أبي طي، فليس أمامنا سوى الإجابة على سؤال واحد، وهو لماذا اعتبر نور الدين محمود مجرد وصول حملته بقيادة شيركوه إلى مصر بعد رحيل الحملة الصليبية فتحا لها في ظل بقاء وزير فاطمي لا يؤتمن على تنفيذ وعوده، وفي الوقت نفسه استاء من قتل هذا الوزير وتولى قائد قواته

بدلا منه الحكم الفعلي لمصر؟ وبمعنى آخر لماذا كان نور الدين محمود يفضل بقاء شيركوه كقوة عسكرية في مصر في ظل سلطة سياسية أخرى، ولا يفضل جمع شيركوه بين السلطتين العسكرية والسياسية؟

التفكير المنطقي لإجابة هذا التساؤل لا يفسر لصالح رأى ابن أبي طي، حيث إنه من المفترض أن ولاية شيركوه الوزارة في مصر، في ظل وجود خليفة لا حول له ولا قوة، يعد بحق فتحا لمصر.

ومن ناحية أخرى: إذا افترضنا أن ابن أبي طي كان يضم شيتا من التحامل على نور الدين محمود في تفسيره لموقفه المنافي للمنطق، فهل كان هذا منهجا عاما في كتاباته عن تاريخ العلاقات بين نور الدين محمود و أسد الدين شيركوه؟ وهناك أيضا تساؤل آخر يساهم في تحقيق رأى ابن أبي طي، وهو هل سبق أن سمح نور الدين محمود لأسد الدين شيركوه بممارسة دورا واضحا في شئونه السياسية في بلاد الشام بالإضافة إلى توليه قيادة جيشه؟

في حقيقة الأمر أن ما وصلنا من كتابات ابن أبي طي عن تاريخ العلاقات بين نور

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٤؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٤٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٠؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٨١ - ٥٨٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٨ - ٢٥٩؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٤٩.

الدين محمود و أسد الدين شيركوه، كان ضمن كتابه الذى أرخ فيه للسيرة الصلاحية، وهذا الكتاب قام بتأليفه أثناء إقامته فى حلب فى فترة ولاية الملك الظاهر بن صلاح الدين (٥٨٢ - ٦١٣ هـ / ١١٨٦ - ١٢١٦ م) ومن بعده فى فترة ولاية الملك العزيز بن الملك الظاهر (٦١٣ - ٦٣٤ هـ / ١٢١٦ - ١٢٣٦ م)، ولهذا فمن المتوقع أن يغلب على كتاباته فى كثير من الأحيان طابع المدح فى أصل الأسرة التى تتولى الحكم فى حلب طوال فترة حياته، وأيضا أن يفسر هذا المدح على أنه تحامل فى كتاباته على نور الدين محمود.

وقد ظهر هذا من خلال كتابات ابن أبى طى عن دور أسد الدين شيركوه فى ولاية نور الدين محمود حلب فى عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، و التى أوضحناها فى مقدمة كتابات ابن أبى طى عن العلاقة بينهما، وقد غلب على أسلوبه فيها طابع المدح، وأعطى شيركوه مكانة كبيرة، وجعله صاحب الفضل الأول فى ولاية نور الدين حلب سياسيا وعسكريا، وقد يحمل هذا المدح معنا آخر، ويفهم على أن ابن أبى طى يريد الإقلال من شأن نور الدين محمود، وأنه لولا جهود شيركوه ما كان وضع أساس دولته فى حلب.

أما بالنسبة لطبيعة العلاقة بين نور الدين محمود وشيركوه بعد ولايته حلب، فقد أظهرت كتابات ابن أبى طى السابقة تفوق أسد الدين شيركوه العسكرى فى دولة نور الدين حتى صار قائدا لقواته، وفى الوقت نفسه أوضحت كتاباته أن نور الدين محمود أبعد شيركوه عن تدبير شئون الدولة السياسية، وذلك منذ أن تولى حلب فى عام ٥٤١ هـ.

هـ / ١١٤٦ م، حيث ذكر إنه: «مال... إلى «مجد الدين أبو بكر بن الدايه» حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته»^(١).

وقد يفهم ذلك على أن ابن أبى طى كان متحاملا على نور الدين محمود لأنه بعد ما أظهر الدور الكبير الذى قام به شيركوه مع نور الدين عند ولايته حلب، أوضح أنه أبعد عنه بعد ما استقرت أحواله، وقد كانت هذه فرصة طيبة لابن أبى طى لو كان يريد أن

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ١٢٤.

يظهر نور الدين بصورة سيئة، ولكننا وجدناه بعد ذلك يذكر المبررات المنطقية التي كانت وراء قرار نور الدين، فذكر أنه أبعد شيركوه عنه على أثر دخول مدينة «بعلبك» وواليها «نجم الدين أيوب». أخو شيركوه. في دائرة سلطة إمارة دمشق لأنه: «خاف أن يفُسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده»^(١)، كما ذكر أيضا جملة أخرى تشير في مضمونها إلى سبب إبعاده عنه عندما ذكر أن شيركوه كان: «يعن (عليه) بأنه كان السبب في توليته»^(٢).

وقد لاحظنا طوال تاريخ العلاقات بينهما التي سجلتها كتابات ابن أبي طي أن أسد الدين شيركوه ظل بعيدا عن تدبير شئون نور الدين محمود السياسية، وأن أقصى ما مكنته منه نور الدين محمود كان إسناد أمر دمشق وحمص إليه، كما ذكرنا من قبل.

ولكن من الواضح أن طموح شيركوه في أن يكون له دور في السلطة السياسية كان أكبر من ذلك، وقد ظهر هذا منذ ولاية نور الدين محمود حلب في عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م، حيث ذكر ابن أبي طي أنه استاء من تقديم نور الدين محمود مجد الدين ابن الداية، وإسناده إليه جميع أموره. وقد عبر ابن أبي طي عن موقفه هذا بقوله: «فشق ذلك على أسد الدين»^(٣)، وقد ظل أسد الدين شيركوه متأثرا بهذا الأمر، وظهر ذلك أثناء موقعة «يفرا» في عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م، حيث أوضح فيها ابن أبي طي أنه قصر في أداء واجبه العسكري في هذه المعركة فقال: «أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي واقعة «يفرا». ولما سأله نور الدين عن أسباب ذلك قال له: «إيش نتفع نحن؟ إنما يتفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر»^(٤).

ولعل المكانة العسكرية الكبيرة التي حظى بها أسد الدين شيركوه في دولة نور الدين

(١) المصدر نفسه والصفحة .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

محمود في بلاد الشام قد أرضت جانباً كبيراً من طموحه، ولكن من الواضح أن حملاته على مصر قد أيقظت بداخله طموحه القديم في أن يقوم بدور فعال في مقاليد الأمور في دولة نور الدين محمود. وقد ألح ابن أبي طي إلى رغبة شيركوه في ولاية مصر، فقال عند خروج حملة شيركوه الثانية من مصر في عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م: «وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوى منها.. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه وأقطعته حمص وأعمالها»^(١). وقال أيضاً عند إعداد نور الدين محمود للحملة الثالثة: «وأنفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه»^(٢).

ومن المؤكد أن نور الدين محمود بحكم خبرته الطويلة مع أسد الدين شيركوه كان مدركاً لمدى طموحه خاصة بعد إرساله في عدة حملات إلى مصر. وقد أكد ابن أبي طي هذا بقوله: «ويقال أنه (نور الدين محمود) لما مرض قال: ما أخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها»^(٣).

ومن خلال كل ما سبق فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن ما ذكره ابن أبي طي عن استياء نور الدين محمود من ولاية شيركوه الوزارة الفاطمية أمراً لا يخلو من الحقيقة.

وكان أبو شامة قد فسر رواية ابن أبي طي بقوله: «لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب هذا إن صح ما نقله ابن أبي طي»^(٤).

على أي حال لم تدم وزارة أسد الدين شيركوه في مصر سوى شهرين، حيث توفي في جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، وخلفه في منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين،

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٢٨.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٣٢.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٤١.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٣٧.

حيث وقع اختيار الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله عليه من بين القادة الذين كانوا ضمن حملة أسد الدين شيركوه في مصر في ذلك الوقت^(١).

ثانياً: العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين في مصر:

عرضنا من قبل ما أورده ابن أبي طي عن طبيعة العلاقة بين نور الدين محمود وأولاد نجم الدين أيوب، وتحديدًا مع ولده «يوسف الملقب بعد ذلك بصلاح الدين»، منذ أن التحق بقوات نور الدين محمود في عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م وأوضحنا كيف توطدت العلاقة بينهما حتى أصبح صلاح الدين من خواصه. ثم ذكر ابن أبي طي بعد ذلك أن هذه العلاقة لم تدم طويلاً، وتبدلت بعد ولاية صلاح الدين الوزارة في مصر في عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، وأوضح أن ولايته لها كانت وراء هذا التغيير في العلاقة بينهما.

وقد اهتم ابن أبي طي بتتبع الدلائل الدالة على استياء نور الدين محمود من صلاح الدين منذ ولايته الوزارة، وانفرد بهذا الاهتمام المبكر بين أقرانه من المؤرخين الذين أرخوا لتاريخ الدولة الأيوبية مثل العماد الأصفهاني وابن الأثير وابن شداد، ولهذا وجدنا صعوبة في التحقق من موضوعية ابن أبي طي في كتاباته عن هذه العلاقة في تلك الفترة المبكرة، خاصة أن هؤلاء المؤرخين بدأوا الكتابة عن سوء العلاقة بينهما منذ عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ حتى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وهناك بعض الدلائل التي ذكرها ابن أبي طي أكدها هؤلاء المؤرخون بعد ذلك والبعض الآخر انفرد به. وكانت أولى هذه الدلائل:

١- حث نور الدين محمود أمراءه في مصر على مفارقة صلاح الدين:

اعتمد ابن أبي طي في هذا الرأي على ما حدثه به «والده» عن بعض أصدقاء نور الدين فقال: «حدثني أبي قال: حدثني جماعة من أصحاب الملك العادل نور الدين محمود بن الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكي - صاحب الشام - أن السلطان نور الدين

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٠١-١٠٢.

كاتب مَنْ عند الملك الناصر، من الأمراء بتركه بمصر، بناء منه على أنه يقتل أو يعجز عن المقام»^(١).

وهذا الرأي نفاه ابن الأثير في سياق ذكره لأسباب مغادرة بعض الأمراء النورية مصر، وأرجع سبب مغادرة أحد هؤلاء الأمراء - وهو «عين الدولة الياورقي» - إلى رفضه العمل تحت قيادة صلاح الدين لأنه كان يعد من كبار الأمراء النورية في مصر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أوضح ابن الأثير أن نور الدين محمود لام هؤلاء الأمراء الذين تركوا صلاح الدين و«أنكر عليهم فراقه»^(٢).

٢ - موقف نور الدين محمود من ولاية صلاح الدين الوزارة:

قال ابن أبي طي: «وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدثني جماعة من أصحاب^(٣) الملك العادل^(٤) نور الدين^(٥) محمود بن الملك المنصور عماد الدين زنكي صاحب الشام^(٦) أن^(٧) السلطان^(٨) نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين^(٩) يوسف^(١٠)»

(١) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٦.

(٢) الكامل، ج ٩، ص ١٤٢؛ الباهر، ص ١٤٢. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٧٤.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٤) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٦) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٨) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٩) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(١٠) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا^(١) أعظم ذلك^(٢) وأكبره وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئا بغير أمرى؟ وكتب في ذلك عدة كتب^(٣). فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته^(٤).

أكد «المقريزي» هذا الموقف الذي ذكره ابن أبي طي - وهو من المؤرخين اللاحقين به - وروى رواية أخرى تحمل نفس المعنى فقال: «فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه وأغضبه^(٥)».

أما بالنسبة لما ذكره ابن أبي طي عن طاعة صلاح الدين لنور الدين محمود، فقد كان ذلك بالفعل من سمات علاقته معه، وأكدها «العماد الأصفهاني» في مواقف أخرى^(٦).

٣ - إرسال نور الدين محمود أهل وأصدقاء صلاح الدين إليه:

أورد ابن أبي طي دليلا آخر أورده أيضا عن والده، فقال: «وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه تثقيلا عليه^(٧)».

وقد نفى هذا الاتهام كلا من العماد الأصفهاني وابن الأثير، حيث أوضح العماد أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان قد استأذن نور الدين محمود في الخروج إلى صلاح

(١) إضافة من أبو شامة (الروشتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٦.

(٣) أورد ابن كثير ملخصا لرأي ابن أبي طي في هذا الجزء انظر (البداية، ج ١٢، ص ٧٧٥).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٥) اتعاظ الخنفا، ج ٣، ص ٣١٠.

(٦) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٧) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٠ - ٤٤١.

الدين فى مصر فى عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٠ م، فأذن له بذلك وخرج نور الدين لحمايته، وأكد ابن الأثير أن صلاح الدين هو الذى راسل نور الدين محمود و طلب إرسال أهله وأصدقاءه، فرفض نور الدين طلبه، وقال له: «أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد»^(١). وجدير بالذكر أن نشير أن ابن أبى طى ذكر بعد ذلك فى أحداث عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٠ م ما يتعارض مع هذه الرواية التى أعتمد فيها على رأى والده حيث أوضح أن نور الدين أرسل نجم الدين أيوب إلى مصر بقصد حث ولده على قطع الخطبة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية.

٤ - محاسبة نور الدين صلاح الدين حول دخل مصر:

قال أيضا ابن أبى طى عن والده: «وعنته بالمطالبات وحمل الأموال»^(٢) وطلب منه حساب مصر وما صار إليه^(٣)، وكان كثيرا ما يقول: ملك ابن أيوب^(٤)»^(٥).

وهذا الموضوع سوف نناقش رأى ابن أبى طى فيه فى ختام كتاباته عن العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين، لأنه سيتناوله مرة أخرى بمزيد من التفصيل.

٥ - حل نور الدين محمود إقطاعات أقارب شيركوه وصلاح الدين فى الشام:

قال ابن أبى طى: «وتتبع أصحاب أسد الدين وصلاح الدين والمتعصبين له، وأمر

(١) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٤٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٠٢، ١٠٦؛ الباهر، ص ١٤٣. وانظر أيضا: ابن شداد: النوادر، ص ٤٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٥؛ المقرئى: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠، ٣١٦.

(٢) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٣) إضافة من أبو شامة (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١).

(٤) أورد كل من ابن كثير والمقرئى نفس رواية ابن أبى طى فى هذا الجزء. انظر: (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٧٥؛ المقرئى: اتعاظ الخفا، ج ٣، ص ٣١١).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ق ٢، ص ٤٤١؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

بحل إقطاع أسد الدين وصلاح الدين^(١). قال: ولما ملك الناصر مصر^(٢) «أنتزع»^(٣) نور الدين «حصص»^(٤) من نواب أسد الدين^(٥)، و«الرحبة» من «ناصر الدين ابن أسد الدين»^(٦)، و«فرق عماله وأعطاه» «تل باشر» ثم أخذها منه^(٧) «^(٨)».

أكد «ابن شداد» ما رواه ابن أبي طي في هذا الموضوع عن قيام نور الدين محمود بأخذ حصص من ناصر الدين محمد بن شيركوه فقال: «ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر، أخذ حصص من نواب أسد الدين، وذلك في رجب من سنة أربع وستين وخمسمائة»^(٩).

وفي رأينا أن رواية ابن أبي طي وابن شداد عن العلاقة بين ولاية صلاح الدين الوزارة وانتزع نور الدين محمود حصص من ناصر الدين بن شيركوه أمرا مبالغ فيه. وقد يكون ناصر الدين في رأي نور الدين لا يصلح لقيادة ثغر هام مثل «حصص»، والذي كان قد ولاه لوالده في عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م نظرا لحاجة هذا الثغر. كما يقول العماد الأصفهاني.

(١) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٢) إضافة من أبو شامة (الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١).

(٣) في نص ابن الفرات: «أخذ». (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١؛ ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٥) إضافة من ابن الفرات (تاريخه، ج ٤، ق ١، ص ٦٦).

(٦) هو الملك ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه: قيل عنه أنه كان متطلعا إلى السلطنة ويدعي أنه أحق بها من صلاح الدين، ولما توفي والده أخذ نور الدين محمود منه حصص في رجب ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م، ثم أعادها إليه صلاح الدين بعد ذلك، وتوفي في حصص في يوم عرفة عام ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م، وبعد وفاته أبقى صلاح الدين أملاكه (حصص - تدمر - الرحبة - سلمية) مع ولده أسد الدين شيركوه. (ابن خلكان: نفس المصدر والجزء، ص ٤٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم، ج ٦، ص ٩٩ - ١٠٠؛ العماد الخبلي: شذرات، ج ٤، ص ٢٧٣).

(٧) أورد المقرئ نفس رواية ابن أبي طي انظر: (اتعاظ الخنفا، ج ٣، ص ٣١١).

(٨) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١.

(٩) النوادر السلطانية، ص ٤١. وانظر أيضا: ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨٠؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ١٥.

لكفاءة وشجاعة شيركوه^(١)، ومما يؤكد ذلك أن نور الدين عوض ناصر الدين عن حمص بها قد يتناسب مع كفاءته فأعطاه كما ذكر ابن أبي طي تل باشر

أما بالنسبة لما أورده ابن أبي طي عن الإقطاعات الأخرى التي قام نور الدين بحلها فلم نجد في كثير من المصادر العربية ما يؤكد هذا الموضوع، ووجدنا في كتابات العماد الأصفهاني ما يؤكد بقاء إقطاع نجم الدين أيوب والد صلاح الدين معه حتى سفره إلى صلاح الدين في مصر في عام ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م^(٢).

٦ - اتهام نور الدين محمود صلاح الدين بالتشيع:

قال ابن أبي طي: «حدثني أبي قال:..... وأكثر عليه الشائعات، وقرفه بأشياء منها «الرفض» وبدأ منه ما يليق بالذكر»^(٣). وهذا الاتهام انفرد به ابن أبي طي.

٧ - ندم نور الدين محمود على إفاد شيركوه وصلاح الدين إلى مصر:

قال ابن أبي طي: «و لقد كان يتألم لِمُلْك المَلِك الناصر ويقال أنه لما مرض قال: ما أخطأت إلا في انفاذ أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، و ما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مت فصيروا بابني «إسماعيل»^(٤) إلى حلب فإنه لا يبقى عليه غيرها»^(٥).

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) قال العماد: «شرع (نجم الدين) في تفريق أملاكه وتوفير ماله... ولم يستصحب شيئا من موجوده وجعله نية جوده». (سنا البرق، ص ٤٧)

(٣) ابن الفرات: المصدر السابق، ج ٤، ق ١، ص ٦٦.

(٤) الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود: تولى الحكم بعد وفاة والده في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وكان يبلغ من العمر أحد عشر عاما، فتولي «سعد الدين كمشتكين» تدبير أموره في حلب، وظل الملك الصالح واليا عليها حتى وفاته بها في عام ٥٧٧ هـ (ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٢٦، ١٣١، ١٥٣).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١.

٨ - موقف صلاح الدين من تغير نور الدين محمود عليه:

قال ابن أبي طي: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه، غير أنه يلقاها بصدر رحب، وخلق عذب. حدثني أبي عن «ابن قاضي الدهليز»، وكان من خواص الملك الناصر، قال: جرى يوما بين يدي السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه، ثم قال: والله لقد صبرت منه على مثل حَزَّ «المدني»^(١) ووخر الإبر، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد على ما يعتده ذنبا، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضا أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلّي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي فما أبلغته أربه يوما قط^(٢).

أكد ابن الأثير ما ذكره ابن أبي طي بشأن مراسلات نور الدين، فقال: «كان نور الدين يكتبه بالأمير «الاسفهلار»، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرد بكتاب، بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح الدين». ولقب «الأمير الاسفهلار» كان يُطلق كما يقول المقرئ على قائد الأجناد، وهو بلى المرتبة الثالثة في الترتيب الوظيفي بعد الوزير وصاحب الباب^(٣). ومن هنا يظهر لنا كيف كان في مراسلة نور الدين صلاح الدين بلقب الأمير الاسفهلار فقط إقلالا من شأنه كوزير لمصر. ونستطيع أن نقول أن مراسلة نور الدين له بهذا اللقب كان يعنى أيضا أنه لا يعترف به إلا كقائد للجيش خلفا لعمه، وليس كوزير للخلافة الفاطمية في مصر، وفي هذا تأكيد آخر لما ذكره ابن أبي طي من قبل عن استيائه من ولايته الوزارة.

(١) المَدْي: جمع مُدْيَة وهي السكين والشفرة. (ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣، ص ٥٧).

(٢) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٣) الكامل، ج ٩، ص ١٠٢؛ الباهر ص ١٤٢-١٤٣. وانظر أيضا: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١،

ق ٢، ص ٤٠٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣؛ التويري: المصدر السابق، ج ٢٨،

ص ٣٥٩؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٧٤؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١١

٩ - موقف نور الدين محمود من تأخر صلاح الدين في إعلان الخطبة العباسية:

قال ابن أبى طى: «عام (٥٦٦ هـ) قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين، رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولى ابنه المستضى أقبل أيضا على مكاتبة نور الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك»^(١).

أكد كثير من المؤرخين ما أورده ابن أبى طى عن موقف نور الدين محمود إزاء تأخر صلاح الدين في إقامة الخطبة العباسية. فقال ابن الأثير: «فلما اعتذر إلى نور الدين لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاما لا فسحة له في مخالفته». وقال النويرى: «فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه». وقال أبو المحاسن: «أرسل إليه وخشن له في القول». ولعل سبب انزعاج نور الدين هو أنه كان - كما أوضح المقرئى - : «في ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه»، فكيف لا ينفذ أمره. ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يؤجل إقامة الخطبة العباسية خوفا من نور الدين، فإنه كان - كما يقول ابن الأثير - «يخشى أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد يكون العاضد معه حتى إن قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه»^(٢).

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١١؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٣؛ ابن واصل:

المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٠؛ النويرى: المصدر السابق، ج ٢٨، ص ٣٤٤؛ المقرئى: المصدر

السابق، ج ٣، ص ٣٢٥-٣٢٦؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧

١٠ - هدايا صلاح الدين إلى الخلافة العباسية وإلى نور الدين محمود:

قال ابن أبي طي (في أحداث عام ٥٦٨ هـ): «وأرسل إلى الخليفة ببغداد «من ذلك»^(١) هدايا سنينة نفيسة^(٢)، وكذلك إلى الملك نور الدين، أرسل إليه من ذلك جانباً كثيراً صالحاً، ولم يدخر شيئاً مما حصل له من الأموال، بل كان يعطى ذلك من

حوله من الأمراء وغيرهم . فكان مما أرسله إلى نور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واحد وثلاثون مثقالاً، والأخرى ثمانية عشر مثقالاً، والثالثة عشرة مثقال، وقيل: أكثر، مع لآلى كثيرة، و«ستون ألف دينار»، وعطر لم يسمع بمثله، ومن ذلك حمارة وفيل عظيم جداً، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة في جملة هدايا^(٣).

أكد العماد الأصفهاني ما أورده ابن أبي طي عن وصف الهدية، ومن المرجح أنه اعتمد في وصفه لها على كتابات العماد هذا من ناحية^(٤)، أما بالنسبة لرواية ابن أبي طي عن إسراف صلاح الدين فقد لاحظنا من خلال كتابات العماد الأصفهاني ما يؤيد روايته، وكان العماد قد ذكر أن صلاح الدين قام بمنح الشاعر «العرقلة» عشرين ألف دينار بعد ملكه مصر، لأنه كان قد وعده أثناء وجوده معه بدمشق أن يعطيه ألف دينار إذا ملك مصر، فلما ملك صلاح الدين مصر أرسل إليه العرقلة أبياتاً يذكره فيها بما وعده فأعطاه صلاح الدين عشرين ألف دينار، وأخذ له من أخوته مثله !!، وهذا يعني أن هذا الشاعر جمع ما يوازي أربعين ألف دينار، في حين أرسل صلاح الدين ستون ألف دينار فقط إلى

(١) أي الذخائر الفاطمية .

(٢) لم يرسل صلاح الدين الهدايا مباشرة إلى الخليفة، وكان قد أرسل إلى نور الدين جملة هدايا، فتخير نور الدين من بينها بعضها وأرسلها إلى الخليفة (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٦٥) .

(٣) ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٨٦ .

(٤) المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥ . وانظر أيضاً: أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٤ .

٥٢٦ (رواية العماد)؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٤، ٢٢٦؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٠ .

نور الدين مع باقى الهدايا^(١).

١١ - وصول رسول نور الدين محمود إلى صلاح الدين لمحاسبته:

قال ابن أبي طي (في أحداث عام ٥٦٨ هـ): «لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرّد «الموفق بن القيسراني»^(٢) وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها؛ فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعظم على نور الدين أمر مصر، وأخذ من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال.

حدثني أبي قال: لم {تخف} ^(٣) حال نور الدين في كراهية الملك الناصر؛ ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء وتحدثت به العوام، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتد بعد ذلك في مراسلته، وأنفذ ابن القيسراني لكشف الأحوال؛ ولو طال عمره لم يكن له بدّ من {الدخول إلى مصر} ^(٤)، ^(٥) ^(٦).

أكد العماد الأصفهاني ما ذكره ابن أبي طي عن موقف نور الدين محمود من هدية صلاح الدين، وعن إيفاد ابن القيسراني لحساب دخل مصر، فقال: «فشكر نور الدين همته وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال... فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٩-٤٥٠ (رواية العماد).

(٢) موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني: تولى الوزارة للملك نور الدين محمود، كما رأس له أيضا «ديوان الاستيفاء». (العماد الأصفهاني: سنا البرق، ص ٦٩؛ ابن العديم: زبدة الخلب، ج ٢، ص ٣٣٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٣٢؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١).

(٣) في طبعة «دار الجليل»: «يخف». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦).

(٤) في طبعة «دار الجليل»: «دخول مصر». (المصدر نفسه والصفحة).

(٥) أورد المقرئ ملخصا لرواية ابن أبي طي في هذا النص انظر (السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥١).

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٥ (طبعة دار الكتب).

فقر إلى الذهب.. واستقل المحمول». وفي رواية أخرى قال العماد الأصفهاني: «وكان نور الدين منذ ملكت مصر يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على تحمل كلف الجهاد... وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده... فلما حمل من أخاير الذخائر ما حمله... تقدم إلى الموفق أن يمضى... ويعمل أيضا حيازة بالأعمال المصرية»^(١).

أما بالنسبة لما جاء في رواية ابن أبي طي على لسان والده خاصة تلميحه لغزو نور الدين محمود مصر، فقد أكد ابن الأثير هذا الرأي، وأوضح أن نور الدين محمود قبل وفاته في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م كان قد: «شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين.... فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة... فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله»^(٢). كما أكد هذا الرأي أيضا ابن شداد من خلال عرضه لأحد الروايات التي حكاها له صلاح الدين فقال: «حكى لي السلطان قال: «كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكشف ويخالف ويشق عصاه، ويلقى عسكره بمصاف يرده إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم، وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته»^(٣).

ثم وصل رسول نور الدين محمود إلى مصر في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وتناول ابن أبي طي تفاصيل هذا الموضوع فقال: «وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق ابن القيسراني إلى الديار المصرية، واجتمع بالسلطان الملك الناصر وأنهى إليه رسالة نور

(١) المصدر السابق، ص ٦٥، ٦٨؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٤ - ٥٢٥؛ ابن

واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٦، ٢٣٢؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٩٠

(٢) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٤. وانظر أيضا: ابن العديم: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٠؛ أبو

شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٨١ - ٥٨٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص

٢٥٨ - ٢٥٩؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٩.

(٣) النوادر، ص ٤٧.

الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من {ارتفاع البلاد} ^(١). فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة {والعقل} ^(٢)، {ثم أمر} ^(٣) بعمل الحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين «جامكياتهم» ورواتب نفقاتهم ^(٤) ^(٥).

أكد العماد الأصفهاني ما رواه ابن أبي طي عن ضيق صلاح الدين من تحديد نفقاته وظهر ذلك من خلال ذكره رد صلاح الدين على رسول نور الدين محمود، فقال له: «وما يُضبط مثل هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن يتقضى ارتفاعها» ^(٦).

١٢ - هدية صلاح الدين إلى نور الدين محمود:

انفرد ابن أبي طي بوصف تفاصيل الهدية التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين محمود مع رسوله في عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وروايته عن هذا الموضوع في غاية الأهمية لأنه كان قد اعتمد على النص الأصلي لوصف الهدية بخط ابن القيسراني، كما تحدث مع أحد شهود العيان الذين رأوا الهدية وضبط منه أيضا وصفها.

تضمنت الهدية خمس ختمات قال ابن أبي طي في وصفهم: «فلما حصل عنده جميع ذلك

(١) في طبعة «دار الجليل». «المغل». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢١٩).

(٢) ساقطة من طبعة «دار الكتب». (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩) (طبعة دار الجليل)؛ ج ١، ق ٢، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب).

(٣) في طبعة «دار الجليل». «فأمر». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢١٩).

(٤) أورد كلا من ابن كثير والمقريزي رواية ابن أبي طي عن هذا الموضوع. انظر (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٦؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣).

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب).

(٦) المصدر السابق، ص ٢٩. وانظر أيضا: ابن واصل: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٧-٢٥٨.

أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد «الفقيه عيسى». قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسراني وهي: خمس «ختمات»؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق، مُضَيَّبة بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط «يانس»^(١)؛ وختمة بخط «راشد»^(٢)، مغشاة بديباج فُسْتُقى عشرة أجزاء؛ وختمة بخط «ابن البواب»^(٣) مجلدا واحد بقفل ذهب؛ وختمة بخط مهلهل، جزء واحد؛ وختمة بخط «الحاكم البغدادي»^(٤).

وتضمنت الهدية أيضا الكثير من الأحجار الكريمة قال ابن أبي طي: «ثلاثة أحجار «بلخش»، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف؛ ست قصبات زمرد، قصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلاث وردين. وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وردين. وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلاث؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا؛ خمسون قارورة دهن بلسان؛ عشرون قطعة بلور؛ أربع عشرة قطعة «جزع»، وذكر تفصيلها»^(٥).

(١) هو يانس الناسخ: عمل في خزانة الكتب الأفضلية عند قدومه من الشام إلى مصر في عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م. (المقريري: اتعاظ الخنفا، ج ٣، ص ٥١).

(٢) هو راشد بن إسحاق بن راشد أبو حليلة الكاتب: كان أدبيا كاتباً شاعرا، وعاصر الوزير «أبا جعفر بن عبد الملك ابن الزيات» الذي وزر للخليفة العباسي «المعتصم» (٢١٨-٢٢١ هـ / ٨٣٣-٨٤٢ م). وتوفي «راشد» إثر تعرضه لمرض شديد في طريقه إلى مكة. (ياقوت: معجم الأدباء، ج ٣، ص ٣٢٧-٣٢٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٩٤، ١٠٠).

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور: نسبة إلى والده الذي كان يعمل بوابا. فاق «ابن البواب» في كتاباته المتقدمين وأعجز المتأخرين في الكتابة مثله. عمل لفترة في خزانة الكتب «لبهاء الدولة بن عضد الدولة» في شيراز وتوفي في عام ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م (ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤، ص ٣٥٢-٣٥٣؛ ابن خلكان: وفيات، ج ٣، ص ٣٤٢-٣٤٣).

(٤) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٨.

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

كما اشتملت الهدية على الكثير من الأواني والملابس والأقمشة المذهبة قال ابن أبي طي في وصفها: «إبريق «يشم»، طشت يشم، «سقرق» ميناء {وذهب}»^(١)؛ صحون صيني و«زيادي» و«سكارج»؛ أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار؛ كرتان وزن إحداهما ثلاثون رطلا بالمصري والأخرى {و}»^(٢) أحد وعشرون رطلا؛ مائة ثوب أطلس؛ أربعة وعشرون {بقيارا}»^(٣) مذهب؛ أربعة وعشرون ثوبا حريري؛ أربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض؛ حلة فلفل مذهب؛ حلة «مرايش» صفراء مذهب. وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، عدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه»^(٤)»^(٥).

ثم قال ابن أبي طي: «وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليها من {نهبها واستبدوا}»^(٦) بأكثرها. وقيل أنها وصلت جميعا إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فانفذ من ردها. قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره»^(٧).

(١) في طبعة «دار الجليل». «مذهب». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢١٩).

(٢) ساقطة من طبعة «دار الجليل». (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢١٩) (طبعة دار الجليل)؛ ج ١، ق ٢، ص ٥٥٨ (طبعة دار الكتب).

(٣) في طبعة «دار الجليل». «بقيارا». (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩).

(٤) ذكر ابن كثير ملخصا لرواية ابن أبي طي عن هدية صلاح الدين، وأورد المقرئ نفس نص روايته في هذا الموضوع انظر. (ابن كثير: البداية، ج ١٢، ص ٧٩٦؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٤-٥٥).

(٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٨-٥٥٩ (طبعة دار الكتب).

(٦) في طبعة «دار الجليل». «نهبهم واستبدوا». (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩).

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٥٩ (طبعة دار الكتب).